

وَلَقَدْ مَجَّحْنَا بِهٖ سِرُّهُ

وَرَأَيْتُ بَدْلَهُ غِيَّتَهُ

فِي

الْقُرْآنِ الْكَدِيمِ وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ

الطبعة الأولى



وَلَوْلَا مُحَمَّدٌ لَمْ يَكُنْ الْبَشَرُ

دراسات بلاغية  
في  
القرآن الكريم والحديث الشريف

الطبعة الأولى  
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٨ م

دار الطبع والنشر  
مركز الدراسات والبحوث

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له  
عرجا .

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، الذي آتاه الله جوامع الكلم ،  
وفصل الخطاب وبعد .

فقد سمعت العناية بالدراسات البلاغية يزورح شمس الإسلام . لأن  
القرآن الكريم ، ممددة الرسول ﷺ الخالدة ، حجة بانية .

وقد اقتضت الموازنة بين أسلوبه ، والأساليب الأخرى التنبيه إلى  
جمال اللفظ ، وشرف المعنى ، والتأمل في صور البيان .

هذا . والكلام عن معاني القرآن ، ومجازه ، وسر إعجازه ، والحديث  
الشريف ، وجميل بيانه ، يتطلب الفكر القويم ، والعلم الوفي ، والإحساس  
المرهف ، والذوق السليم .

ومن ثم ، فقد آثرت أن أذكر مشيدا بعض الجهود الطيبة أصفورة  
مختارة ، من أرباب الفكر ، وأساطين البيان ، من المتقدمين ، والمعاصرين  
الذين تحدثوا عن البلاغة القرآنية والنبوية حديثا يهيم المقول ، ويأسر القلوب ،  
بما وهبهم الله ، من بيان خلاق ، وعبقريّة فذة . وذكاه نادر ، وحكمة  
وشجدة .

واقه أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يكون لنا  
ذخرا يوم الدين .

المعادي في ١٣ من المحرم سنة ١٣٥١٢٩٩ من ديسمبر سنة ١٩٧٨م

محمد حسن شرشر



## إعجاز القرآن

لم يحدث في تاريخ البشرية أن أمة من الأمم اعتنت بكتابها الساري ، كما اعتنت هذه الأمة المحمدية ، ولم نسمع عن كتاب مقدس نال من الحفظ والرعاية ، والإجلال والإكبار ، كما ناله هذا الكتاب المجيد ، معجزة محمد عليه الصلاة وأزكى السلام الخالدة ، ورجته الباقية ، ودعوته إلى الناس أجمعين .

ولا يجب أن ينال القرآن العظيم هذه الميزة الرفيعة ، ويحتل من نفوس المسلمين تلك المكانة الجليلة ، ذلك لأن الأحداث التي رافقت نزول هذا الكتاب المقدس ، تجعله يتبوأ مكان الصدارة بين جميع الكتب السارية ، ويفوق كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من هداية وإصلاح .

وتدجرت حكمة الله الأدبية أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجرات الباهرات ، والدلائل الواضحات ، والحجج والبراهين الساطعة التي تدل على صدقهم ، وهي أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير .

وقد خص الله تبارك وتعالى نبينا ﷺ بالمعجزة العظمى ، القرآن الكريم ، ذلك النور الرباني ، والوحي الساري الذي ألقاه على قلب نبيه قرآنا عربيا غير ذي عوج ، يتلوه آتاء الليل ، وأطراف النهار . والذي أحيا به أجيالا من الأمم أحياء بنور القرآن ، وهداها أقوم طريق ، وانقشها من الخضمض فجعلها خير أمة أخرجت للناس ، وصدق الله حيث يقول : «أر من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الظلمات ، كن مثله في الظلمات ليس بخارج منها . كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون» (١) .

وإذا كانت معجزة الأنبياء السابقين "حسية" ، فتناسب مع العصر والزمان الذي بدتوا فيه كمعجزة "موسى" عليه السلام حيث كانت "اليد والمصا" لأنه يمت في زمن كثير فيه السحرة واشتهر فيه السحر ، وكذلك معجزة "عيسى" عليه السلام حيث كانت بإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه (١) والأبرص ، لأنه يمت في عصر كثير فيه الطب والحكمة ، وظهر فيه الأطباء البارعون ، فأناهم عيسى بن مريم بما أدهشهم ، وأعجزهم ، من شفاء المرضى ، وإحياء الموتى .

فإن معجزة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه معجزة "روحية عقلية" . وقد خصه الله بالقرآن معجزة العقل الباقي على الزمان ، ليراهم ذوق القلوب والبصائر ، فيستنبطوا بضمياتها وينتفعوا ببردها في الحاضر والمستقبل .

ولمّا كانت معجزته "عقلية خالدة" ، لأن رسالته خاتمة الرسالات ، فمن خالدة خلود الدهر باقية بقاء الإنسان (٢) .

يقول الشيخ محمد البنا : "وإذا كانت قد جرت خوارق المعاداة على يد النبي ﷺ غير القرآن كما ورد في صحاح السنة ، فإن النبي ﷺ لم يتحدث بها ، بل كان يتحدث بالقرآن وحده ، ولهذا كان القرآن معجزة الرسول التي تؤيد رسالته ، وتشرق في قلوب الذين اتبعوه من المؤمنين .

ورسالة النبي ﷺ شاملة خالدة ، لأنها خاتمة الرسالات ، فكانت الحكمة أن تتفق معجزته مع نوع رسالته ، إذ كان كل نبي سبق كان يأتي برسالة تقوم بأعيانهم وتنتهي بما يأتي بعدها من الرسالات . ولم يكن من

(١) الأكمه : الأعمى .

(٢) أنظر التبيان في علوم القرآن ٨٧ - ٩٠ .



الممكن أن تكون معجزة خاتم الانبياء أمرا حسيا يراه جماعة حين يقع ،  
فإذا لحق الرسول بالرفيق الأهل انقضى ذلك الأمر المحسوس ، ولا يراه  
أحد من بعده ، لأن الأمور المحسوسة لا تتفق مع نوع هذه الرسالة ،  
ولا مع خلوها ، لقد كان القرآن ، معجزة الناس جميعا ، ولذلك جاء  
للدنيا بعد أن اكتملت المدارك البشرية ، وارتقى الفكر الإنساني ، لأن  
رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وافقت البشرية بعد أن أدركت إرشدها  
وتكامل النمو العقلي في مجموعها ، فكانت معجزته تدرك « بالعقل »  
ولا تحتاج إلى أي نوع من الحس ، فهي معان خالدة ، يدرك سمورها الإنساني  
في كل الأجيال . وهي معجزة يخاطب بها الناس جميعا (١) .

---

(١) الكتاب والسنة ص ٢٢ - عن كتاب التبيان في علوم القرآن .

### المقصود بإعجاز القرآن

الإعجاز في اللغة العربية هو نسبة المعجز إلى الغير . قال تعالى : « أدعرت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأواري سواء أخى » (١) .

وتسمى « المعجزة » ، معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثله ، لأنها أمر خارق للعادة ، خارج عن حدود الأسباب المعروفة . وإعجاز القرآن منناه وإثبات عجز البشر — متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله .

وليس المقصود من « إعجاز القرآن » هو تعجز البشر لذات التعجيز ، أى تعجزهم بمعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، فإن ذلك معلوم لدى كل عاقل .

ولما الفرض إظهار أن هذا الكتاب حق ، وأن الرسول الذى جاء به رسول صادق .

وهكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام التى يعجز البشر عنها ليس الفرض منها إلا إظهار صدقهم ، وإثبات أن ما جاءوا به إنما هو بوحى من الحكيم العالم ، وتزيل من الإله الغافر ، وأنهم إنما يبلفون رسالات الله ، وليس لهم إلا الإخبار والتبليغ .

فالمعجزات إذاً براهين من الله سبحانه إلى عباده ، بصدق رسله وأنبياؤه . فكأن الله تعالى بهذه المعجزة — يقول : « صدق عبدى فما بلغ عنى » ، وأنا أرسلته ليبلغكم ذلك ، والدليل على صدقه أن أجرى على يديه خوارق الماديات مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتي بمثله ، وما ليس بمقدور أحد أن يحاربه فى مثل هذا الأمر العجيب هذا هو معنى الإعجاز ، وذلك هو مفهوم المعجزة (٢) .

(٢) البيان فى علوم القرآن ٩١

(١) المائدة آية ٣١

هذا ، والمرحوم الشيخ الزرقاني ، كلام نفيس في تعريف المعجزة .

يقول رحمه الله : المعجزة : هي أمر خارق للعامة خارج عن حدود الأسباب المعروفة ، يخالفه الله تعالى على يد مدعى النبوة عند دعواه لإيادها ، شاهدا على صدقه .

بمعنى أنه إذا قام إنسان ما ، وادعى أنه مبعوث من الله تعالى إلى خلقه ، ورسوله إلى عباده ، وقال إن آية صدقي فيما أذهب ، أن يغير الله الذي أرسلني عادة من عاداته على يدي وأن يخرج الآن عن سنة من سنته العامة في وجوده .

ثم قال : وسيأتكم الله بهذا الأمر العجيب ، من باب ترون أنفسكم فيه قابضون ، وعليه قادرون ، وإلى أخذكم زرافات ووحدا أن تأثروا بمثل هذه الآية ، وأمامكم الباب مفتوحا ، كما تعتقدون وفيكم النبوغ موفورا كما تدهون ، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدي .

قال ذلك بلغة الرائق ، وتحدانا هذا التحدي الظاهر في وقت يشور فيه على عقائدنا ، وعاداتنا وأخلاقنا ، ويسفه فيه أحلامنا ، وأحلام أمثالنا من آياتنا .

ونحن أحرص ما نكون على تعجزه ، وتبنيته ، والعملية عليه . والظفر به ، دفاعا عن كرامتنا ، وانتصارا للأعشى لدينا .

ثم لم يلبث أن قام وقتنا ، وأجمع أمره وأجمعنا ، وإذا نحن جميعا بعد محاولات ومحاولات لم نستطع أن تأتئ بمثل ما أتئ به فضلا عن أعظم منه مع أننا أمة وهو فرد ، ومع أنه قد دخل إلينا من أيسر الطرق في نظرنا ، ومن أشهر فن في زماننا ، ومع أنه قد أعطانا الفرصة السكانية لمناظرته ، وانصفنا كل إنصاف من نفسه .

هل يشك كل ذي مسكة (١) من عقل ، في أن هذا الانسان المتفوق  
الامتياز صادق في رسالته ، وبحق في دعوته ، خصوصا إذا عرفنا فوق ذلك  
كله أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق من لدن صباه وطفولته  
إلى يوم ميته ورسالته لو أنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه أقلنا  
رجل حذق فنا من الفنون التي لا هلم لنا بها ، أو تدلنا صناعة من الصناعات  
التي لم نعط بخبرها ، أما وقد جاءنا من الناحية التي نشهد لأفئدتنا فيها بالتفوق  
والسبق ، فلا يسعنا إلا الإذعان له ، والإيمان بما جاء به ما دمتا منصفين .

ولنضرب لك مثلا : جاء موسى عليه السلام بمعجزة عصا من الخشب ،  
لا روح فيها ولا حركة ، ولا لين ولا رطوبة ، ثم ألغاه باسم الذي أرسله ،  
فإذا هي حية قسي ، بينا الأمة التي تحداها بذلك كانت قد تفوقت في السحر  
وحذقته ، وضربت فيه بأوفس سهم ، وأوفى نصيب ، خصوصا أنهم أمته وهو  
فرد ، وهم زابنون في السحر ، وهو مع نشأته فيهم لم يعرف يوما من الأيام  
بمعالجة السحر فهل بقي لك شك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه ، فإذا هي تلقف  
ما يأفكون فوق الحلق ، وبطل ما كانوا يعملون ، فقلوبهم تلك وانقلبوا  
صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى  
وهرون (٢) .

الحق أبلغ ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم لأنهم أعرف  
بالسحر ، ومقدماته ونتائجه ، وقد رأوا رأى الدين أن ذلك الاعجاز ليس  
من نوع السحر الذي عرفوه .

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله ، قل في هيبى بن مريم

(١) مسكة : بقية .

(٢) الأعراف الآيات ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

عليه السلام ، وإبرائه الأكمة والأبرص ، وأحيائه الموتى بإذن الله ، أمام قوم نبهوا في الطلب أيما نبوغ ، ومهروا فيه أيما مهارة .

وقل مثل ذلك وأكثر في خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ، وما جاء به من آيات بينات ، ومعجزات واضحات ، وحسبك القرآن وحده برهاناً ساطعاً ، بل براهين ساطعات كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم في فهم الدنيا إلى يوم الساعة تتحدى العالم بما يسكون فيها من أسرار الفصاحة ، والبيان ، والعلوم والمعارف ، وأنباء الغيب ، وشواهد الحق (١) .

على أنه يلاحظ أن معجزات القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين ، المعجزات الرسل خرقته النواميس وتحدث وأثبتت أن الذي جاءت على يديه رسول صادق من الله .

ولكنها معجزات كونية ، من رآها فقد آمن بها . ومن لم يرها صارت عنده خيراً ، إن شاء صدقه ، وإن شاء لم يصدقه ، ولو لم ترد في القرآن لكان من الممكن أن يقال إنها لم تحدث ، إذا فالمعجزة الكونية المحضة ، أى التى يحس بها الإنسان ويرأها تقع مرة واحدة ، من رآها فقد آمن بها ، ومن لم يرها تصبح خيراً بعد ذلك :

ولكن معجزة النبى صلى الله عليه وسلم معجزة عقلية باقية خالدة ، يستطيع بها كل واحد أن يقول : محمد رسول الله . وهذه معجزته وهى القرآن .

شئ آخر إذا نظرنا إلى المعجزات السابقة ، وجدنا هذه المعجزات فعل من أفعال الله ، وفعل الله من الممكن أن ينتهى بمدان يفعله الله ، البحر انشق لموسى ، ثم عاد إلى طبيعته .

---

(١) مناهل العرفان ج ١ ص ٧٣ - ٧٦ ط الحلبي .

النار لم تحرق إبراهيم ولكنها عادت إلى غاصيتها بعد ذلك ولكن  
معجزة النبي صلى الله عليه وسلم : حقة من صفات الله وهي كلامه ،  
والفعل باق ، بإبقاء الفاعل له ، والصفة باقية ببقاء الفاعل نفسه .

ويلاحظ أيضا في معجزة القرآن أنها اختلفت عن معجزات الرسل  
باعتبار آخر .

كل رسول كانت له معجزة ، وله كتاب منج . . معجزة موسى العصا ،  
ومنهجه التوراة ، ومعجزة عيسى العلي ، ومنهجه الإنجيل ولكن رسول الله  
ﷺ معجزته هو عين منهجه . ليظل المنهج محروسا بالمعجزة ، وتظل المعجزة  
في المنهج .

ومن هنا فقد كانت الكتب السابقة للقرآن داخلة في نطاق التكليف . .  
بمعنى أن الله سبحانه وتعالى كان يكاف عباده بالمحافظة على الكتاب .

أما القرآن : فقد قال الله سبحانه وتعالى عنه . « إنا نحن نزلنا الذكر »  
و « إنه له لحافظون » (١) .

هذا وقد جاء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بهذا القرآن المنظم  
متحديا أئمة الفصاحة ، وفرسان البلاغة بصور متعددة ، وأساليب  
متنوعة .

تحداهم على أن يأتوا بمثل القرآن فمعجزوا أولوا الأدبار مع أنهم فرسان  
الفصاحة وملوك البيان .

يقول سبحانه « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » (٢)

(١) الحجر ٩ — أنظر معجزة القرآن للمصباح متولى الشعرأوى ٩ ، ١٠

(٢) الطور ٣٤

فأفلا عجزوا تحداً أن يأتوا بعشر سور مثله أم يقولون افتراء . قل  
فأتوا بعشر سور مثله مفريات ، وادعوا من دون الله إن كنتم  
صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله  
إلا هو فهل أنتم مسلمون ، (١) .

فمعجزوا أيضاً ، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة ، وإن كنتم في ريب  
مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله . وادعوا شهداءكم من دون الله  
إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، وإن تفعلوا ، فأتهموا النار التي وقودها  
الناس والحجارة أعدت للكافرين ، (٢) .

فحجروا كذلك ولم يتقدم واحد منهم إلى حلبة الميدان وبذلك سجل  
عليهم القرآن المعجز والمحرمة ، وثبتت معجزة محمد النبي الأمي على أن هذا  
القرآن تنزيل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون  
من المنذرين بلسان عربي مبين ، (٣) .

هذا ويقول القرطبي رحمه الله في تفسيره لأحكام القرآن وقوله :  
« فإن لم تفعلوا ، يعني فيما معنى « وإن تفعلوا ، أى تطبقوا ذلك فيما يأتي ... »  
وفي قوله « وإن تفعلوا ، إثارة لهمهم ، وتحريك لنفوسهم » ليكون  
عجزهم بعد ذلك أبعد ، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل  
وقوعها (٤) .

---

(١) هود ١٣ ، ١٤

(٢) البقرة آية ٢٣ ، ٢٤

(٣) الشعراء ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

(٤) تفسير القرطبي دار الشعب ٢٠١ والتبيان في علوم القرآن ٩٥

هذا . ولم يكن التحدى للعرب وحده بل كان عاما للإنس  
والجن . ولكن أن لهم أن يأتوا بمثله وصدق الله إذ يقول : « قل لن  
اجتمع الإنس والجن ، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ،  
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١) » .

• • •



## وجوه إعجاز القرآن

لإعجاز القرآن وجوه كثيرة :

من أهم هذه الوجوه :

### نظم القرآن

فقد جاء كتاب الله بجمع النظم ، عجيب التأليف . مثناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلمه عجز الخالق عنه (١) .

فالقرآن الكريم لا يشبهه شيء في نظم ، لا من شعر ، ولا من نثر ، وذلك بشهادة أساطين البلاغة ، وأئمة الفصاحة والبيان .

دوى أن الوايد قال لبني عذروم ، والله لقد سمعت من محمد آتفا كلاما ما هو من كلام الأنس ، ولا من كلام الجن ، إن له لطلاوة ، وإن له لطلاوة وإن أهله لمشر . وإن أسفله لمصدق ، وإنه يعلو وما يعل (٢) .

هذا وأسلوب القرآن رائع خلاب يهر المقول بروقة وجماله وهذوبته وحلاوته ، وهما قد سرت على ألفة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا أهدار مختلفة بين علو ونزول ، واتساع واتقياض ، وحركة وجمود ، وحضارة وبداعة ، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه ، يعل على الجميع من سمائه ، وهو يشع نورا وهداية ، ويفيض عذوبة وجلالة ،

(١) إعجاز القرآن لباقلاني - دار المعارف ٣٥ .

(٢) الكشف ج ٤ ص ٥١٩ .

ويسيل رقة وجواله . ويرف جدة وطلاوه ، ولا يزال كما كان غضا طريا ، يحمل راية الاعجاز ، ويتحدى أهم العالم في يقين وثقة . قاتلا في صراحة الحق وقوته ، وسلطان الاعجاز وسوته ، قل لمن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن . لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهرا (١) .

كما أن للقرآن الكريم مسحة خلابة تنجل في نظامه الصوتي ، وجماله اللغوي . وزيد بنظام القرآن الصوتي انساق القران ، واتلافه في حركاته وسكناته ، ومداته وغناته ، واتصالاته وسكناته ، انساقا عجيبا ، واتلافا رائعا يسترعى الاسماع ، ويستمرى النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومثنو .

وزيد بجمال القرآن اللغوي ، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه ، وترتيب كلماته ، ترتيبا دونه كل ترتيب تماخاها الناس في كلامهم . ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه ، واختل نظامه في آذان سامعيه .

ومن عجب أمر هذا الجمال اللغوي ، وذلك النظام الصوتي أنهما كما كانا دليل أهجاز من ناحية كأنهما دورا نبيما لحفظ القرآن من ناحية أخرى .

وذلك أن من شأن الجمال اللغوي ، والنظام الصوتي أن يسترعى الاسماع ويثير الانتباه ، ويحرك داهية الاقبال في كل إنسان . إلى هذا القرآن الكريم ، وبذلك يبقى أبدا الدهر سائدا على ألسنة الخالق في آذانهم ، ويعرف بذاته ، ومزاياه بينهم ، فلا يمرز أحد على تغييره ، وتبديله مصداقا

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ط الحلبي

أقوله سبحانه : «إنا نحن زانوا الذكر» ، ولنا له الحافظون ، (١) .

والى جانب ذلك ففيه الإيجاز الرائع ، والجزالة الخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر أن يحيط بها ، أو يأتي بمثلها لأنها فوق طاقة البشرية ، والقدرة الإنسانية . لقد كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخبر ساجداً لله رب العالمين ، وذلك لروعة هذا الكتاب المجيد وتأثيره في نفوس السامعين .

يرى أن « الأصمى » خرج ذات يوم فلتقى جارية خماسية أو سداسية (٢) . وسمعا تنشد أبيتاً من الشعر رائعة ، فأعجب بتلك الأبيات وهزت منه النفس والقلب ، بهال أسلوبها ، ودوعة بيانها ، وفصاحة ألفاظها فقال لها : فأتلك الله ، ما أفصحك ؟

ف قالت له : ويحك أو يمد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا نأدره إليك وجاعلوه من المرسلين » (٣) .

ثم قالت له : فقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

قال الأصمى . فأعجبت بفهمها وإدراكها أكثر مما أعجبت بفهمها ، فهي جارية بدوية صغيرة السن ، ولكنها واسعة العلم والفهم .

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٨

(٢) أي طولها خمسة أو ستة أشبار .

(٣) القصص ٧

وقد أشارت هذه الجارية على الأصحى بروعه ما في القرآن من بلاغة وفصاحة ، وإيجاز وإعجاز .

والآية الكريمة جمعت بين أمرين وهما : أرضعيه ، وألقه في اليم ، ،  
ونهيين وهما : لا تخافي ، ، و لا تحزني ، وخبرين وهما : « أوحينا »  
و « خفت » ، وبشارتين وهما : « إنا رادوه إليك » ، و « جاعلوه من  
المرسلين » ، فالبشارة الأولى برده إليها سليما كريما ، والبشارة الثانية ،  
وهي أن الله سبحانه وتعالى سيجعله رسولا هاديا ، فانظر — ربك الله —  
كيف أدركت هذه البدوية ، بفطرتها العربية ، سرا من أسرار هذا الإيجاز  
والإعجاز ، وانتبهت إلى ما لم يدركه هو من أسرار القرآن ، فكان الآية  
نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان فكانت لأنها بميزان (١) .

ومن ثم فإن لأسلوب القرآن الكريم خصائص تجعلها فيما يلي :

الخاصة الأولى : مسحة القرآن اللفظية ، التي تتجلى في نظامه الصوتي  
وجماله اللغوي .

الخاصة الثانية : إرضاءه العامة والخاصة ، بمعنى أن الجميع يحسون  
بجلاله ويشعرون بروعته .

الخاصة الثالثة : إرضاءه العقل والمخاطفة . ما ، فالقرآن يخاطب العقل  
والقلب ، ويجمع الحق والجمال معاً .

الخاصة الرابعة : جودة سبك القرآن ، وإحكام سرده ، فكانه سبيكة  
واحدة تهر المعقول ، وتأخذ بالابصار .

الخاتمة الخامسة : براعته في تصريف القول ، وتفنته في حروب الكلام . بمعنى أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ شتى ، وطرقت عنانته ، وكلها رائعة فائقة .

الخاتمة السادسة : جمع القرآن بين الإجمال والبيان .

الخاتمة السابعة : الوفاء بالمعنى مع التمسك في اللفظ (١) .

• • • • •

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

والله اعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) أظن متاهل العرفان للزرقاني ج ٢ ص ٣٠٩ - ٣٢٤ ظا الحلبي .

(۱) این نامی است که در کتاب آمده است.

لرسول السابقين عليهم الصلاة والسلام ، وهذه القصص الرائعة التي يفرض بها كتاب رب العالمين ، لم يكن لعلم محمد بها من - فيل -

من تلك القصص :

قصة نوح التي قال الله فيها : « ذلك من أنباء الغيب نوحيها إليك . ما كنت تعلمها أنت ، ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (١) » .

وقصة موسى التي يقول الله فيها : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ولكننا أنشأنا قرونًا فتناول عليهم العمر ، وما كنت تاديا في أهل مدين تنزل عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين .

وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » (٢) .

وقصة مريم . وفيها يقول تعالى : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ، أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون » (٣) .

هذا ووجه الإعجاز في الماضي ، وقصصه ، أن النبي ﷺ نفا لهما ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب حتى يعلم بالتلقين

(١) هود ٤٩ .

(٢) القصص الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) آل عمران ٤٤ = انظر مناهل العرفان ٢٣ من ٣٦٧ . (٤)

هلهم، ركان قريه، أمين لا يسود فيهم عالم من أى طريق كان، إلا أن يكون علم القطرة والبيان، وارهاف احاسيسهم بالشعر والكلام البليغ، وتذوق الكلمات والمعاني (١).

وصدق الله إذ يقول : « وما كشت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك إذا لارتاب المبطون، » (٢).

#### غيب الحاضر :

أما عن غيب الحاضر، الذى لم يكن الرسول ﷺ سبيل إلى العالم به - فنه ما أخبر الله تعالى به عن المنافقين في عصر رسول الله ﷺ، مما كان قائما بهم . وخفى أمره عليه « صلوات الله وسلامه عليه » كقوله تعالى :

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه، وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها، ويهلك الحرث والنسل . والله لا يحب الفساد، » (٣).

وكقوله جل شأنه في مسجد الضرار الذى بناء المنافقون : « والذين اقتضوا مسجدا ضارا وكفرا، وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفن إن أردنا إلا الحسى، والله يشهد لهنم الكاذبون، » (٤).

---

(١) المعجزة الكبرى ص ٣٠٩ .

(٢) المشكوت ٤٨ . (٣) البقرة ٢٠٤، ٢٠٥ .

(٤) التوبة ١٠٧ .



### غيب المستقل :

أخبر القرآن الكريم عن حرب ستقع بين الروم والفرس - في بضعة  
سنتين - وأن النوبة فيها ستكون للروم ، بمد أن هزموا في الحروب  
السابقة .

قال تعالى : ه الم . غلبت الروم في أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم  
سيقانون . في بضعة سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء . وهو العزيز  
الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) .

وبيان ذلك : أن دولة الروم ، وهي مسيحية ، كانت قد هزمت ، أمام  
دولة الفرس ، وهي وثنية ، في حرب طاحنة بينهما ، غزن المسلمون بسبب  
أنها هزيمة لدولة متدينة أمام دولة وثنية ، وفرح المشركون ، وقالوا  
للمسلمين في شجاعة العدو : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد  
غلبهم المنجوس .

وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم ، فستغلبكم  
كما غلبت فارس الروم .

فتزلت الآيات الكريمة يبشر الله فيها بالمسلمين بأن هزيمة الروم هذه  
سيهدها انتصار في بضعة سنين . أى في مدة تقراوح بين ثلاث  
سنوات وتسع .

---

(١) الروم الايات ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ .

ولم يكن مطلقاً وقت هذه البشارة أن الروم تنتصر على الفرس في هذه المدة الوجيزة ، بل كانت المقدمات والأسباب تاتي ذلك عليها ، لأن الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غرست في عقر دارها ، كما يدل عليه النص الكريم « في أدنى الأرض » .

ولأن دولة الفرس كانت قوية منيعة ، وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة ، حتى أنه بسبب استحالة أن ينتصر الروم هادة ، أرتقوم لهم قائمة ، واهن بعض المشركون أبابكر رضى الله عنه على تحقق ما جاء به القرآن .

ولكن الله تعالى أنجز وعده ، وتحققت نبوءة القرآن في السنة الثانية من الهجرة المحمدية .

وعما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى ، وهى البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في هذا الوقت الذى ينتصر فيه الروم ، ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

وصدق الله وعده فى هذه ، كما صدق وعده فى تلك . وكان ظفر المسلمين فى غزوة بدر الكبرى واقعا فى الوقت الذى ظفر فيه الروم .

وهكذا تحققت النبوءتان فى وقت واحد ، مع تقطع الأسباب فى انتصار الروم — كما علمت — ومع تقطع الأسباب ايضا فى انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة ، لأنهم كانوا فى مكة فى صدو الإسلام ، والمسلمون حينئذ أقل ، يضطهدون المشركون ، ولا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة ، ولكن على رغم هذا الاستبعاد ، نزلت الآيات — كما ترى — تؤكد البشارتين ، وتسوقهما فى مركب من التأكيدات البالغة (١) .

سبحانك ربى : أيستطيع محمد ﷺ أن يقنبا بـنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس ، بعد بضعة سنين .

هل يستطيع قائد عسكري مهما بلغت قوته وعبقريته وتبوغه أن يقنبا بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها .

فأبالك أن ذلك بأتى ، ويقول إنه بعد بضعة سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم .

هل أمّن محمد ﷺ على نفسه أن يعيش بضعة سنين يشهد هذه المعركة . ولقد وصل الأمر بأب بكر رضى الله عنه — كما علمت — أنه راهن على صحة ما جاء بالقرآن .

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس . أو لو أنه حدثت معركة وهزم فيها الروم ، أكان بعد ذلك يصدق أى إنسان القرآن ، أو يؤمن بالدين الجديد .

ثم إذا كان القرآن من عند محمد عليه الصلاة والسلام ، فما الذى يجعله يدخل فى قضية غيبية كهذه .. لم يطلب أحد منه الدخول فيها . أبيضع الدين من أجل غفطرة لم يطلبها أحد ، ولم يتحده فيها إنسان ، ولكن القائل هو الله والفاعل هو الله ، ومن هنا كان هذا الأمر الذى زل فى القرآن يقينا سيحدث .. لأن قائله ليس عنده حجاب الزمان .. وحجاب المكان .. ولا أى حجاب .. وهو الذى يقول ما يفعل .. ومن هنا حدثت الحرب .. وانتصر الروم على الفرس فعلا ، كما تنبأ القرآن (١) .

ومن ذلك — أيضاً — قوله تعالى فى سورة القمر المكينة : « أم يقولون

(١) معجزة القرآن ٢١ ، ٢٢ .

نحن جميع منتصر . سيزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة  
أدهى وأسر (١) .

فقد أخبر القرآن عن هزيمة المشركين وفي وقت لا مجال فيه انفسكة  
الحرب ، فضلا عن التقاء الجمع ، وانتصار المسلمين .

والجihad — كما تعلم — لم يفرض إلا في السنة الثانية من الهجرة لأنه  
لأخبار يفتيب لم يكن إلا في علم الله تعالى .

روى عن عكرمة أنه قال : لما نزلت هذه الآية « سيزم الجمع ويولون  
الدبر » قال عمر بن الخطاب أى جمع هذا الذى سيزم ؟

فلما كانت غزوة بدر رأى رسول الله ﷺ ، وهو يثب في الدرع ،  
ويقول : « سيزم الجمع ويولون الدبر » عرف تأويلها (٢) .

ومن الاخبار عن المقيبات — كذلك — ما أخبر به القرآن الكريم  
من أن الرسول ﷺ ، وأصحابه — وقد كانوا بالمدينة — سيدخلون  
مكة محلقين رهوسهم ومقصرين إذ قال سبحانه : « لقد صدق الله رسوله  
الرؤيا بالحق لندخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رهوسكم  
ومقصرين لا تخافون » فعمل ما لم تعملوا ، لجعل من دون ذلك فتحا  
قريباً (٣) .

وقد أنجز الله وعده ، فتم الأمر ، ودخل المؤمنون مكة آمنين  
مطمئنين .

(١) لقمر ٤٥ ، ٤٦

(٢) الكشف ج ٤ ص ٣٥٠

(٣) الفتح ٢٧

هذا ومن عجايب « الاخبار عن المغيبات » أن القرآن الكريم عرّف  
لنبيين بعض أحداث جزئية ، تقع في المستقبل لشخص معين ، ثم تحقق  
الأمر كما أخبر .

هذا هو الوليد بن المغيرة المخزومي يقول الله فيه : « نسمة على  
المخرطوم » أي سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها وقد كان .

ففي غزوة بدر الكبرى خطم ذلك الرجل بالسيف ، أي ضرب به أنفه .  
وبقي أثر هذه الضربة سمة فيه وعلامة له .

والوليد بن المغيرة هو الذي نزل فيه قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت  
وحيدا ، وجعلت له مالا عدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهدا » ثم  
يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لا يأتنا عتيدا سارعه صعدا ، إنه فكر  
وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ثم نظر ، ثم عبس وبسر ،  
ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ،  
سأصليه سقرا (١) .

وقوله جل شأنه : « ولا تطع كل حلاف مهين ، همار مشاء بنميم ،  
مناع للخير ممتد أثيم ، عتل بعد ذلك زينم ، أن كان ذا مال وبنين ،  
إذا تنلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » نسمة على المخرطوم (٢) .

ثم أنظر بربك : رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي فيقرأ : « تبت يدا  
أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصل تارا ذات لهب »

(١) المدثر الآيات من ١١-٢٦

(٢) القلم الآيات من ١٠-١٦

أنظر مناهل العرفان ٣٨٠

وامرأته حالة الخطب ، في جدها حبل من مسد ، (١) .

هذا قرآن ... وفي من ؟ في عم الرسول ... وفي من ؟ في عدو  
الإسلام .

ألم يكن أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام بهذه السورة . ألم يكن  
يستطيع أن يستخدمها كسلاح ضد القرآن . ضد هذا الدين . قالت له  
الآية : يا أبا لهب أذع سموت كافرا . . سموت مشركا ، وستعذب  
في النار . وكان يكفي أن يذهب أبو لهب إلى أى جماعة من المسلمين ،  
ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . . يقولها  
نفاقا . . يقولها رياء . . يقولها ليهدم بها الإسلام ، لا يدخل في  
الإسلام .

يقولها ثم يفت وسط القوم يقول : إن محمدا قد أنباكم أنني ساموت  
كافرا . وقال إن هذا كلام مبلغ له من الله . وأنا أعلن إسلامي لأنبت  
لكم أن محمدا كاذب . .

ولكن حتى هذا التفكير لم يحرق في عقل أبي لهب على الرسول  
إليه بل بقي كافرا مشركا ، ومات وهو كافر .

إن كثيرا من المذركين اهتدوا إلى الإسلام كخاله بن الوليد ، وعمرو  
بن العاص . وعمر بن الخطاب ، وغيرهم كانوا مشركين وأسلموا ، فكيف  
أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقا . وسيموت وهو كافر .  
المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدو ، وتعداه في أمر

اختياري .. كان من الممكن أن يقوله . ومع ذلك هناك يقين أن ذلك لن يحدث . . لماذا ؟

لأن الذي قال هذا القرآن يعلم أنه لن يأتي إلى هذا أي أب تفكيره يكذب به القرآن .

هل هناك إعجاز أكثر من هذا (١) .

في القرآن الكريم ما لا يحصى من الإعجازات العظيمة التي لا يمكن حصرها في هذا المكان . ولكن من أجل أن نرى بعضاً من هذه الإعجازات العظيمة ، سنذكر هنا بعضاً من الإعجازات العظيمة التي لا يمكن حصرها في هذا المكان .

في القرآن الكريم ما لا يحصى من الإعجازات العظيمة التي لا يمكن حصرها في هذا المكان . ولكن من أجل أن نرى بعضاً من هذه الإعجازات العظيمة ، سنذكر هنا بعضاً من الإعجازات العظيمة التي لا يمكن حصرها في هذا المكان .

في القرآن الكريم ما لا يحصى من الإعجازات العظيمة التي لا يمكن حصرها في هذا المكان . ولكن من أجل أن نرى بعضاً من هذه الإعجازات العظيمة ، سنذكر هنا بعضاً من الإعجازات العظيمة التي لا يمكن حصرها في هذا المكان .

في القرآن الكريم ما لا يحصى من الإعجازات العظيمة التي لا يمكن حصرها في هذا المكان .

في القرآن الكريم ما لا يحصى من الإعجازات العظيمة التي لا يمكن حصرها في هذا المكان .

(١) معجزة القرآن ٢٠٠٩

### وفاؤه بحاجات البشر

جاه القرآن الكريم بهدايت تامة كاملة ، تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان ، وفاء لا تظفر به في أى تشريع . في القديم والحديث .

فانقرآن الكريم هو الذى وضع أصول الة تد ، وأحكام العبادات وقوانين مفصائل والآداب ، وقواعد التشريع الاقتصادى والسياسى والمدنى والاجتماعى ، وهو الذى نظم حياة الأسرة والمجتمع ، ووضع أدل انبأدى الانسانية الكريمة ، ومن مقاصده النبيلة :

إصلاح العقائد عن طريق ارشاد الخلق إلى حقائق المبدأ المعاد . ودعا إلى عقيدة سامية ، واضحة جليلة ، عمادها الايمان بالله عز وجل ، والتصديق بجميع أنبيائه ورسله ، والايمان بجميع الكتب السماوية مصداقا لقوله تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ، وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله » (١)

ودعا أهل الكتاب اليهود والنصارى ، إلى كلمة سواء لا انصراف فيها ، ولا التواء . قال تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابا من دونه ن الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٢) .

كما جاء بإصلاح العبادات من طريق ارشاد الخلق إلى ما يركى النفس ويفنى الأرواح ، ويقوم الارادة ، ويفيد الفرد والمجموع .

(١) البقرة الآية ٢٨٥

(٢) آل عمران ٦٤



فقد جاء القرآن العظيم بأسس المبادئ ودعائهما ، فشرع الصلاة ، والصيام ، والحج والزكاة ، وسائر أعمال البر والطاعة ، وليست العبادة في الاسلام فاصرة على هذه الدعائم والأركان ، بل تشمل كل عمل خير يقصد به الانسان وجه الله .

وفي مجال التشريع العام ، نجد القرآن الكريم قد وضع قواعد عامة في التشريع المدني ، الجنائي ، السياسي والاقتصادي ووضع أسساً للتعامل الدولي في حالي السلم والحرب ، على أكمل وجه وأعدل نظام .

ففي امر المعاملات حرم القرآن أكل أموال الناس بالباطل « يأبى الذين آمنوا أن يأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » (١)

ودعا الى الاستشهاد عند إبرام البيع ، وكتابة الدين « يأبى الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل » (٢) وفي الأمور الجنائية شرع القرآن الحدود ، وأوجب على الأمة تنفيذها من اجل حماية المجتمع ، وصيانه من الفوضى والاضطراب ، وتأمين الأمة على حياتها ومستقبلها . وأموالها وأعراضها لتميش الحياة الكريمة السعيدة التي لن تكون إلا عن طريق الأمن والاستقرار .

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم وأعظمها خطراً على مستقبل الفرد والجماعة ، ووضع لسكل منها عقوبات مقدرة ، لا يجوز الزيادة عليها ، أو النقصان منها ، أو التساهل في تطبيقها وترك مأسوى ذلك من الجرائم

(١) النساء ٢٩

(٢) البقرة الآية ٢٨٢

الأخرى ، لعلنا المسلم ، ينفذ فيها ما يراه من العقوبة ، على ضوء السنة النبوية المطهرة ، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من ارادة الخير للناس وتطهير المجتمع من المفسد والمظالم الاجتماعية .

أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القرآن عقوبات رادعة فهي خمسة : القتل ، والزنا ، والسرقه ، وقطع الطريق ، والاعتداء على كرامة الناس بالقذف .

هذا ولعل أروع مثل للمقارنة بين « التنزيع الالهي اقرآني » وبين « التنزيع الوضعي » الذي هو من صنيع البشر : ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمه التي سلكها في معالجة المفسد والأمراض الاجتماعية حيث قفى على كل فساد واستأصل كل جريمة من نفوسهم ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، فلكروا الدنيا ، وسادوا العالم (١)

ولل جانب ذلك ، فإننا نجد كتاب رب العالمين يدعو إلى : اصلاح الاخلاق : عن طريق ارشاد الخلق الى الفضائل وتفجيرهم من الرذائل . وإلى القصد والاعتدال ، والوقوف عند حد وسط ، لا إفراط فيه ، ولا تفريط .

واصلاح المجتمع بإرشاد الخلق الى توحيد صفوفهم ، ومحو العصبية والفوارق التي تباعد بينهم ، وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد ، من نفس واحدة ، أبومهم آدم ، ولهم حواء ، وأنه لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى والعمل الصالح . وانهم متساوون امام الله ودينه وتثريه ، متكافئون في الأفضلية ، وفي الحقوق والتبعات من غير استثناءات ولا امتيازات . وان

(١) انظر البيان في علوم القرآن ص ١١٩

الاسلام فقد اخاء بينهم أقوى من اخاء النسب والمصـب . وأن لسانهم العام هو لسان هذا الدين ، ولسان كتابه « لغة العرب » . وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ، ولا تفرقها الحدود الإقليمية ، ولا الفواصل السياسية والوضعية وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فانقون ، (١)

ولإصلاح الحكم الدولي عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس ، ومراعاة الفضائل في الحكم الأحكام والمعاملات من الحق ، والعدل والرفاء بالمعهود ، والرحمة ، والمواصفة ، والمحبة واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود ، والكذب والخيانة والفسق ، وأكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات .

والإصلاح المالي عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع ، ووجوب ائتمانه في وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة العامة والسعي المشروع .

والإصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة تخير الإنسانية في مبدئها وغايتها ، ووجوب التزام الرحمة فيها ، والوفاء بمعاهداتها ، وإيثار السلم عليها ، والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها .

هذا وما يرفع من منزلة هذا الوجه من إعجاز القرآن أن غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يبحثون عن النور ويتعقبون عما بقي بحاجتهم في كثير من أواحي حياتهم حتى اضطروا تحت ضغط هذه الحاجة بعد طول المطاف وقسوة التجارب أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون . أو لا يشعرون .

فقد حرمت أمريكا الخمر أخيراً ولكنها فشلت لإنها لم توفق إلى الطريقة

(١) المؤمنون ٥٢

( ٣ - دراسات بلاغية )

الحكومة التي اتبعها الاسلام في تحريم الخمر . كما أباح - أيضا - الطلاق ، بعد أن كان ممنوعا لديها بسبب تماثيل الكنيسة ، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارة ، ولا تزال تأخذ بتشريع الطلاق .

ويرفع مصلحو أوروبا أصواتهم بضرورة إباحة تعدد الزوجات ، حتى إن بعض نساءهم طالبن بذلك نتيجة لكثرة العوانس من النساء ، بحيث أصبحت المشكلة ذات أهمية خطيرة على المجتمع الأوربي .

وأصدرت حكومة أسبانيا قرارا بمنع البغاء الرسمي في بلادها ، ومنع النساء من البروز على الشراطين في ثياب الاستحمام .

وتنادى زعيم فرنسا غداة هزيمتها أمام الألمان في الحرب الأخيرة بأن سبب انهيار دولة فرنسا ، وسبب هزيمتها هو انقياسهم في الشهوات الجنسية وإسرافهم في المفاسد والمفان :

لأنه الفرق الشاسع بين تشريع الرحمن ، وتشريع الانسان ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١)

### الاعجاز العلمي

هذه . وبما يتصل باعجاز القرآن الكريم ، ما كشف عنه العلم الحديث .  
وكان قبل ذلك مخبوءا في ضمير الزمن ، خفيا على المعاصرين لنزول القرآن .  
ومن ذلك ؛

#### ١ - وحدة الكون :

إن أظهر النظريات العلمية الحديثة تقول . إن الأرض كانت جزءا من  
الجمجمة الشمسية ، ثم انفصلت عنها ، ويبرهنون على صحة هذه النظرية  
بوجود البراكين ، والمواد المنهبة في باطن الأرض .

هذه النظرية الحديثة تتفق مع ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله جل  
تعالى : « أولم ير الذين كفروا . أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما  
وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » (١) .

يقول الأستاذ طيارة ، هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم  
الحديث الذي قرر أن الكون كان شيئا واحدا متصلا من غاز ، ثم انقسم  
إلى سدائمه . وعالمنا الشمس كان نتيجة تلك الانقسامات .

أما القسم الثاني من الآية : وجعلنا من الماء كل شيء حي ، فهو من أبلغ  
ما جاء في تقرير حقيقة علية ، أدرك العلماء مرها . فنظم العمليات الكيماوية  
تحتاج إلى الماء ، وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات

---

(١) الأنبياء ٣٠ - الرق : الضم والالتحام . وافتنق الفصل بين  
الشيتين .

والنباتات . والماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون قد صممه بحكمة  
بحسب صالح مخلوقاته .

والماء يحتضن كميات كبيرة من الأكسجين ، وعندما تكون درجة حرارته  
منخفضة ، وعندما يتجمد تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد الأحياء  
التي تعيش في البحار من أسماك وغيرها .

فما أعجب حكمة القرآن الذي يبين بكلمات فلائل سر الحياة

#### ٢ - تقسيم الذرة :

ظل الاعتقاد السائد حتى القرن التاسع عشر أن الذرة هي أصغر جزء  
يمكن أن يوجد في عنصر من العناصر ، وأنها غير قابلة للتجزئة لأنها الجزء  
الذي لا يتجزأ .

ومنذ عشرات السنين الماضية حول العلماء اهتمامهم إلى مشكلة الذرة ،  
فماكنهم تجزئتها وتقسيمها ، وبواسطة هذه التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية  
والقنبلة الهيدروجينية استمع إلى قوله تعالى عند الأخبار عن الذرة  
( وما يعزب (١) عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر  
من ذلك ، ولا أكبر ، إلا في كتاب مبين ) (٢) .

فكلمة « أصغر من الذرة في الآية الكريمة ، تصريح جلي بإمكان  
تجزئتها .

وفي قوله « ولا في السماء » بيان أن خواص الذرات في الأرض هي

(١) يعزب : يغيب ويغفلني

(٢) يونس ٦١

نقص خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب .  
فهل درس محمد ﷺ خواص الذرة ، وأمكنه تميزتها ، والوقوف على  
خواصها في الأرض والسماء .  
إنها لدليل قوئى على أن القرآن وحى إلهى .

#### ٣ - نقص الأكسجين :

منذ اكتشاف الطيران ظهرت للعلماء بادرة طبيعیه وحی : « نقص  
الأكسجين في طبقات الجو العليا ، فكلمًا خلق الإنسان وارتفع في أجواء  
السماء كلها أدركته هذه الظاهرة . وشعر عند ذلك بضيق الصدر ، وصعوبة  
التنفس . حتى ليكاد يشمر بالاختناق .

ومن ثم فإن الطيارين يطولون تعلّيات للركاب بأن يستعملوا الأكسجين  
الصناعى ، حين تعلو بهم الطائرة إلى مرتفعات عالية تزيد عن خمسة وثلاثين  
ألف قدم .

هذه الظاهرة العلية أشار إليها القرآن الكريم قبل اختراع الطيران ،  
وقبل أربعة عشر قرنًا . استمع إلى قوله تعالى : « فن يرد الله أن يديه يشرح  
صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا . كأنما  
يصعد في السماء » (١) .

لقد جاء هذا العصر فأظهر معجزة القرآن ، وسجل اتفاقًا رائعا للآية  
القرآنية مع واقع العلمى فكان تأييد الصدق قبة محمد ﷺ . فله ما أروع  
هذا القرآن ، وما أعماء :

٤ - التفكيح بواسطة الرياح :

أثبت العلم الحديث أن الريح تلقح الأشجار المثمرة .

وهذه الناحية العلمية تحدث عنها القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه  
« وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقينا كوه . وما أنتم له  
بمجازين » (١) .

وهذا سبق للقرآن في الحقائق العلمية مما يدل على صدق النبوة .

٥ - إختلاف بصمات الإنسان :

وفي القرن الماضي سنة ١٨٨٤ م استعملت إنجلترا رسمياً طريقة التعرف  
على الشخص بواسطة بصمات الأصابع ، وأصبحت هذه الطريقة « تيمة في  
جميع البلاد ، ذلك لأن بشرة الأصابع « مغطاة بخطوط دقيقة ، وعلى عدة  
أنواع ، وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة ، وجميع أعضاء الجسم تتشابه  
أحياناً ، ولكن الأصابع لها «ميزات خاصة إذ أنها لا تتشابه ، ولا تتقارب .  
وهنا تكون المعجزة فلماذا اختار الله سبحانه بنان الإنسان في إقامة الدليل  
على البعث ؟ ليحسب الإنسان أن تجمع عظامه ؟ بل قادرين على أن نسوي  
بنانه » (١) .

---

(١) الحجر ٢٢

(٢) القيامة ٣ ، ٤



#### ٦ - نشأة الكون :

وإذا كان العلماء يقررون أن الكون ابتداء خلقه بالديم وهو يشبه الدخان ، فقد صرح القرآن الكريم قبل ذلك ، وقبل أن يعلموا ذلك فقال تعالى : ثم استوى إلى السماء ، وهي دخان . فقال لها والأرض : اتبيا طوعا أو كرها ، قالتا أتتبنا طائعتين ، (١) .

أقد صور القرآن مصدر خالق هذا الكون ، بالدخان ، وهو الشيء الذي يفهمه العرب من الأشياء الملموسة .

أيكون في مقدور محمد النبي الأُمي عليه أفضل الصلاة والسلام - منذ أربعة عشر قرناً - أن يدرك هذا في وقت كان الناس لا يعرفون شيئاً عن هذا الكون وخفاياه (٢) .

وهذه الدراسات العميقة المسئلة بحقائق القرآن . تفتح مغاليق في العلم ، وتكشف الحقائق الكونية بهدايه من القرآن على أنه المرشد لها ، وليس التابع ، ولا الخاضع .

وكتاب الله تعالى : هو كتاب الحق ، والصدق ، والعلم ، لأنه من عند الله الذي لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض .

كتاب لا يفاهر صغيرة ، ولا كبيرة إلا أحصاها .

هذا وهناك وجوه أخرى للاعجاز القرآني منها : ما تضمنه من العلم

---

(١) فصلت ١١ .

(٢) أنظر التبيان في علوم القرآن ١٣١ - ١٣٧ والمعجزة الكبرى ٤٦٨

الذى هو الذى قوام جميع الانام فى الحلال والحرام وسائر الاحكام .  
« ما فرطنا فى الكتاب من شئ » (١) .

وسلامته من التناقض ، والتعارض ، وصدق الله حيث يقول « ولو كان  
من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٢) .

وصنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، وفى ذلك يقول رب العالمين  
« وإذا نليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » (٣) .

وغير تلك الوجوه كثير .

هذا . ولا يزال الزمن يكشف عن أسرار اعجاز القرآن الكريم . فكلما  
تقدم الزمن تجلت نواح عديدة من نواحي اعجازه وقام البرهان القاطع  
بأنه تنزيل الحكيم الخبير .

ومع ذلك فإن هذه الأسرار التى ذكرها العلماء عن اعجاز القرآن . ماهى  
إلا نظرة من بحر علوم القرآن .

ومهما اتسع القول ، وعظم البيان ، فإن كلام الله تعالى لا يحيط به أحد ،  
كما لا يحيط أحد بمظمة ذاته ، وجليل صفاته (٤) .

(١) الانعام ٣٨ (٢) النساء ٨٢ (٣) الانعام ٢

(٤) أنظر : مناهل العرفان ٢٣٢-٤٠٥ ، وتفسير القرطبي ٦٣-٦٦  
والتيبان فى علوم القرآن ١٠٣-١٤٦ ، والبيان فى اعجاز القرآن . والنسك  
فى اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى الاعجاز .

وأنظر أيضا : المعجزة الكبرى ٧٣ وما بعدها ، واعجاز القرآن لبقلاقي  
٢٣ وما بعدها . ومن بلاغة القرآن ٤٧ ، ومعجزة القرآن ٦ وما بعدها ، ومع  
القرآن الكريم ٣٠٧-٣٢٢ والاتقان فى علوم القرآن ١١٦-١٢٥

### شبهة القول بالصرفه

ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجهه  
اعجاز القرآن هو الصرفه أى : صرف الله العرب عن معارضته على -  
أنه لم يتجاوز فى بلاغته مستوى طاقتهم البشرية .

وضربوا لذلك مثلاً فقالوا : « إن الإنسان كثيراً ما يترك عملاً هو من  
جنس أفعاله الإختيارية ، ومما يقع مثله فى دائرة كسبه وقدرته ، إما لأن  
البواعث على هذا العمل لم تتوافر ، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه ،  
فأقدمته ، وثبط عن يمته ، وإما لأن حادثاً مفاجئاً لا قبل له به قد اعترضه  
فمغل آلاته ، ووسائله ، وهما قدرته قهراً عنه ، على رغم انبعاث همته  
تحرره ، وتوجه إرادته إليه .

فكذلك انصرف العرب عن معارضتهم للقرآن ، لم ينشأ من أن القرآن  
بلغ فى بلاغته حد الإعجاز الذى لا تسمو إليه قدرة البشر عادة بل لواحد  
من ثلاثة :

- ١ - أن يراعى هذه المعارضة ، ودواعيها لم تتوافر لديهم ،
  - ٢ - أن صادقا إلهياً زهدم فى المعارضة ، فلم تتماق بها إرادتهم ، ولم  
تنبعث إليها عزائمهم ، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعي
  - ٣ - أن هارحاً مفاجئاً هزل مواهبهم البيانية ، وهما قدرهم البلاغية ،  
وسلبهم أسبابهم العادية على رغم تماق إرادتهم بها ، وتوجه همهم إليها .
- وينسب هذا القول إلى النظام من المعتزلة ، وبالتأمل فى هذه الفروض  
الثلاثة تعلم أن عدم معارضة القرآن لم تحي من ناحية اعجازه - على

هذا الزعم - بل جاءت على الفرضين الأولين من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة ولولأنهم حاولوا انزالها .

وجاءت على الفرض الأخير من ناحية هجوم عنها لكن بسبب خارجي عن القرآن ، وهو وجود مانع منهم منها قهراً .

ذلك المانع هو حماية الله لهذا الكتاب ، وحفظه لإياه ، من ممارسة المعارضين ، وإبطال المبطلين ولأن هذا المانع زال لجلاء الناس بمثله ، لأنه لا يملو على مستوراهم في بلاغته ونظمه .

### تفديد هذا القول

وهذا القول يفرضه التي افترضوها ، أو شبهاته التي تخيلوها ، لا يثبت أمام البحث ، ولا يفتق والواقع .

#### أما الفرض الأول :

فينقضه ما سجله التاريخ ، وأثبتته التواتر ، من أن دواعي المعارضة كانت قائمة موفورة ، ودوائها كانت مائلة وذلك لأدلة كثيرة :

« منها » : أن القرآن تعدام غير مرة أن يأتوا ، ولو يمثل أنصر سورة منه ، ثم سجل المعجز عليهم ، وقال بأفة الوثائق : أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ولن يفعلوا ، ولو ظاهروهم الإنس والجن : فكيف لانتور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا . ولو كانوا أجهن خلق الله ؟

« ومنها » : أن العرب الذين تعدام القرآن كانوا مضطرب المثل في الحمية والألفة ، وإباء الضيم ، فكيف لا يحركهم هذا التحدى والاستفزاز ؟

«ومنها ، أن صناعتهم البيان ، ودينتهم التنافس في ميادين الكلام ، فكيف لا يطهرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة ؟ ومنها ، أن القرآن أنار حقائقهم ، وسفه عقول ، وعذلو آباؤهم ، ونفى هاليم اليهود واليهالة والشرك . فكيف يسكتون بعد هذا التقريع والتهنيء ؟

«ومنها : أن القرآن أقام حرباً شعواء على أعز شيء لديهم وهي عقائدهم المتفاخرة فيهم ، وعاداتهم المتمكنة منهم فأى شيء يأمب المداعرة ، ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا ؟

ما دام هذه المساجلة هي السبيل المتعين لاسكات خصمهم لو استطاعوا .

#### وأما الفرض الثاني :

فينقضه الواقع التاريخي أيضاً . ودليلنا على هذا ما توارث به الأنبا ، من أن بواعث العرب المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم ، ونالوا منها ما عزائمهم . فمبوا هبة رجل واحد يحاولون القضاء على دعوة القرآن بمختلف الوسائل . فلم يتركوا طريقاً إلا سلكوه ، ولم يدعوا باباً إلا دخلوه .

لقد آذوه ﷺ ، وأذوا أصحابه فسبوا من سبوا ، وهذبوا من هذبوا ، وقتلوا من قتلوا .

ولقد طلبوا من عمه أبي طالب أن يكفه ، وإلا نازلوه وإياه .

ولقد قاطعوه ، وقاطعوا أمرته الكريمة ، لا يبيعون لهم ولا يبتاعون ، ولا يتزوجون منهم ولا يتزوجون ، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر .

ولقد قاوضوه أثناء هذه المقاطعة التي تلين الحديد ، مفاوضات حدة ، وعرضوا عليه عروضاً سخية مغرية . منها : أن يطره حتى يكون أكثرهم

مالاً ، وأن يعقدوا له لواء الزعامة ، فلا يقطعوا أمراً دونه ، وأن يتوجهوا ملكاً عليهم ، إن كان يريد ملكاً ، وأن يلقبوا له العليّ إن كان به من الجن .

كل ذلك في تظير أن يترك هذا الذي جاء به ، ولما أتى عليهم ذلك هرعوا عليه أن يهادنهم ويذاهدهم ، فيجد آلهتهم سنه ، ويمبدون إلهه سنه فأتى أيضاً ، ونزل قول الله :

« قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (١) » .

ونزل كذلك سورة الكافرون :

ولقد تأصّبوا أصحابه العداء في عبادتهم . وانبعث شق منهم فوضع النجاسة على ظهره ﷺ وهو يصلي ، كما خفقه طاغية من طواغيتهم ، لولا أن أبابكر رضى الله عنه جاء فدفعه عنه وقال : « أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فمليه كذبه (٢) .

واقدهم يومه ﷺ مرة بالسحر ، وأخرى بالشر ، وثالثة بالجنون ، ورابعة بالكهانة ، وكانوا يتعجبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم فيموتونه ، ويكذبونه أمام من لا يعرفونه .

ولقد شدوا وطأنهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم ، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فراراً إلى الله بدينهم .

ولقد تأمروا على الرسول أن يشتهره ، أو يقتلوه أو يخرجوه ، لولا أن حفظه الله وحاه من مكرهم وأمره بالهجرة من بينهم .

فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله : إن العرب كانوا معصوفين عن معارضة القرآن ، ونبي القرآن ، وأنهم كانوا يخفون إلى العجز والسكول زاهدين في النزول إلى هذا الميدان .

وهل يصح مع هذا كله ، أن يقال : لأنهم كانوا في تشاغل عن القرآن غير معنيين به ، ولا آبهين له ؟

وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ، ولم يسترح إقتباههم ؟ فلماذا كانت جميع هذه المهارات والمصاولات ؟ مع أن خصمهم الذي يزعمون خصوصته قد قصر لهم المسافة ، ودلهم على أن سيابهم إلى إسمكانه هو أن يأتوا بمثل أقصر سورة مما جاءهم به .

أليس ذلك دليلا ماديا على أن قعودهم عن معارضة القرآن إلا بسبب شعورهم بمعجزهم عن هذه المعارضة ، واقتناعهم بإعجاز القرآن ؟

ولا فلماذا آثروا الملائكة على المكائلة ، والمقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف (١) ؟

وأما الغرض الثالث :

ففساد وفي ذلك يقول الباقلاني ، وما يبطل ماذكروه من القول  
بالصرفه ، أن لو كانت الممازعة ممكنة ، وإنما منعه منها ، الصرفه ، لم يكن  
الكلام معجراً ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة  
على غيره (١) .

كما يقول القرطبي معلقاً على القول بالصرفه ، وهذا فاسد ، لأن إجماع  
الامة ، أن القرآن هو المعجز . فلو قلنا : إن المنع والصرفه هو المعجز لمخرج  
القرآن عن أن يكون معجراً ، وذلك خلاف الإجماع .

ولذا كان كذلك ، ولم أن نفس القرآن هو المعجز ، لأن فصاحته  
وبلاغته أسر خارق للمادة . إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه فلما  
لم يكن ذلك الكلام مألوفاً معتاداً منهم ، دل على أن المنع والصرفه لم يكن  
معجراً (٢) .

كما أنه لو صح القول بالصرفه لسكان ذلك تعجيزاً ، لا إعجازاً ، لأنه  
حينئذ يشبه ما لو قطعنا اسنان إنسان ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام ، فهذا ليس  
من باب المعجز ، وإنما هو من باب التعجيز .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له : إياك إياك أرت قبيل بالماء (٣)  
هذا إلى جانب ما هو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن

(١) إعجاز القرآن دار المعارف ٣٠

(٢) تفسير القرطبي ط دار الشعب ص ٦٦

(٣) التبيان في علوم القرآن ١٤٦



قدروا عن معارضته ، اقتناعاً بإيجازه وعجزهم القطري عن مساجلته ، ولو أن عجزهم هذا كان لطاريء مبالغت عطل قوام البيانية ، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التى أشرنا إليها ، فتوجسوا بما ليس فى حسابهم .

ولسكان ذلك مثار عجب لهم ، ولأعلنوا ذلك فى الناس ليلتمسوا العذر لأنفسهم ، وليقللوا من شأن القرآن فى ذاته ، ولعمدوا إلى كلامهم القديم فعمدوا مقارنة بينه وبين القرآن ، يقضون بها من مقام القرآن وإيجازه .

ولسكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله .

وكل هذه الوازم باطلة ، فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفه .

ثم لو كان هذا العارض المفاجئ صحيحاً لأمكن البلغاء — بعد زمن النجدي — أن يأتوا بمثله ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما فى وسعهم أن يأتوا، واهتدى العلماء إلى تبيين أسباب الجمال فى القول . ولكن لم يستطع أحد أن يدنو من هذا المكان البعيد، أو يقارب هذا الأفق السامى وكذا اهتدوا إلى سر من أسرار الفصاحة، أزدادوا إيماناً بالضعف أمام كتاب الله (١) .

وهل يصح لإنسان يحترم نفسه وعقله أن يصدق بمثل هذا الاقتراء والقول بتعطيل المواهب والخواص، بعد أن يستمع إلى شهادة الأدلاء من سناديد قریش وهو ( الوليد بن المغيرة ) حين قال كلمته المشهورة « والله لقد سمعت آتفا كلاماً ما ليس من كلام بشر ، ليس بشعر ولا أثر ،

ولا كهاية ، والله إن له خلوة ، وإن عليه إطلاوة ، وأن أعلاه لشمرة ،  
وإن أسفله لمندق ، وإنه ليدلو وما يعلى .  
والفضل ما شهدت به الأعداء (١) .

ثم ألم يكفهم ما في القرآن من وجوه الإعجاز الكثيرة التي دللنا عليها  
فيما سبق .

والتي لاتزال قائمة مائة ناطقة إلى يومنا هذا ، ولاتزيدنا الأيام ، وما نجد  
في العالم من علوم ومعارف وتجارب إلا وضوحا وبيانا ؟

على أن الحق لا يعرف بالرجال ، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال .  
وهذا طاش هذا الرأي في الميزان فلنرده على قائله أيا كان :

« وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر (٢) »

(١) التبيان في علوم القرآن ص ١٤٧

(٢) أنظر مناهل العرفان ٤١٤ - ٤١٩

صور من تفوق المتقدمين  
لبلاغة القرآن الكريم

( ٤ - دراسات بلاغية )



الملاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ :

فقد ألف كتباً كثيرة تناولت موضوعات شتى ، وفي كتابيه « البيان والتبيين » ، و « الحيوان » نجد لما وضاه في ميدان البلاغة الرحيب

ولما كان المجاز في القرآن الكريم مثار جدل بين المتبئين والتافهين ، فقد تناول الملاحظ هذا الجدل ، وخاصة معجازه .

فذكر أن ابن حنبل ، وناساً غيره ينكرون وجود المجاز في القرآن ، ويعتمدون على ظاهر اللفظ ، ويرحمون أن الحواريين أنبياء لقوله عز وجل « وإذا أوحيت إلى الحواريين » (١) .

كما زعموا أن في النحل أنبياء لقوله جل شأنه : « وأوحى ربك إلى النحل » (٢) .

ويستخر الملاحظ منهم . « وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء » ، بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل « على المخرج العام » ، « وأوحى ربك إلى النحل » ، ولم يخص الأمهات والملوك ، واليعاسيب (٣) . بل أطلق القول لإحلاقها .

وتناول الملاحظ المجاز في قوله تعالى : « يخرج من بطونهم شراب » (٤) .

---

(١) المائدة الآية ١٧١ .

(٢) النحل الآية ٦٨ .

(٣) اليعاسيب : جمع يعسوب : ملكة النحل — ويقال هو يعسوب قومه أى رئيسهم وكبيرهم .

(٤) النحل الآية ٦٩ .

بقوله تعالى : قالهسل ليس بشراب ، وإلما هو شىء يحول بالماء شرابا ،  
أو بالماء نبيذا ، فبناء — كما ترى — شرابا إذ كان يحوى منة الشراب ،  
واستشهد على صحة المجاز فى الآية الكريمة بموافقة الكلام العرب .

وأرجع الجاحظ فساد قول المانعين بوجود المجاز فى القرآن الكريم  
إلى الجهل باللغة العربية ، ومن حل اللغة على هذا المركب لم يعرف عن العرب  
قليلا ، ولا كثيرا ، وهذا الباب هو مقعر العرب فى لغتهم ، وبه وبأشباهه  
انقضت .

وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة ، وهزيلة ، وضواحي كنانة ، رهؤلاء  
أصحاب العسل ، والأعراب أعرف بكل صنعة سائلة ، وعسل - أظنة ،  
فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب ، أو طعن عليه من هذه الحجة (١) .

كما تحدث الجاحظ عن التشبيه ، ودفع حجة من زعم أنهم سمعوا  
التشبيه فى قوله تعالى : « فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه  
يلهث » .

« وقد اعترض معترضون فى قوله عز وجل : « وائل عليهم نيا الذى  
آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان .

فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنهم أخذوا إلى الأرض  
واتبع هواه ، فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . ذلك  
مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » (٢)

فزعوا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور فى صدور الكلام ،  
لأنه قال : « وائل عليهم نيا الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأيشبه حال من

(١) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ج ٥ ص ٤٢٤ - ٤٢٦ :

(٢) الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦

أصلى شيئا فلم يقبله - ولم يذكر ذير ذلك - بالكلب الذى إن حملت عليه ينبع وولى ذاهبا ، وإن تركته شد عليك ونبح ، مع أن قوله : « يلهث » لم يقع موضعه ، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد ، وحر شديد ، ومن تمب ، وأما النباح والصياح فن شي آخر .

ويدحض الجاحظ هذا الزعم ، ويدفع تلك الأباطيل . ويجب حل هذه الحجة الواهية « فليس يبعد أن يشبه الذى أوقى بالآيات والآحاجيب ؛ والهرهانات ، والكرامات .

في بدء حرصه عليها ، وطلبه لها ، بالكلب في حرصه وطلبه ، فإن الكلب يعطى الجذ والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها ، وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذا رجع نبح بعد اضطراذك له (١) .

وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء المخالفة النفيسة في وزن طلبها ، والحرص عليها ، والكلب إذا أتمب نفسه في شدة النباح مقبلا إليك ، ومدبرا عنك هث ، واعتراه ما يعتريه عند التنب والمطش ، وهل أننا ما نرى بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابطة وادعة . الا وهي تلهث من غير أن تكون هناك الا حرارة أجوافها ، والذى طبعت عليه من شأنها ، الا أن لهث الكلاب يختلف بالشدة والمين (٢) .

كما دعاه دفاعه عن البلاغة القرآنية الى بيان صحة التشبيه وروعه في قوله تعالى : « انها شجرة تخرج من أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين » (٣) .

(١) طردك

(٢) الحيوان ج ٢ - ١٥ - ١٧

(٣) الصافات ٦٥ .

وأبطال اعتراضا أدعاه المبطلون . قال أهل العلم والخلاف كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نر فنتوهمه ، ولا وضعت لنا صورته ، في كتاب ناطق ، أو خير صادق ، ونخرج الكلام يدل على التشويق بتلك الصورة والتفريغ منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشأن كذلك ، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صورته لهم واصل ، صدوق اللسان ، بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق ، وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايش أهل الكتابين ، وحلة القرآن من المسلمين ولم تسمع الاختلاف لا يترحمون ذلك ، ولا يقفون عليه ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما .

ويجب الجاحظ : فلما وإن كنا لم نر شيطانا ناطقا ولا صورانا رؤسها صادق بيده . ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبيح الشيطان ، حتى صاروا يسمعون ذلك في مكانين :

أحدهما أن يقولوا : هو أقبح من الشيطان ، ففي إجماع المسلمين والدرب وكل ، من لقيناه على ضرب المثل بقبيح ، الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد قبض في طوائعهم اغاية التنبيه (١) .



### ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ

ألف ابن قتيبة كتابه « تأويل مشكل القرآن » ، فرد على الطاعنين في أسلوبه جهلا منهم بأساليب البيان ، وأما الطاعنون على القرآن بالجهاز ، فإنهم دعموا أنه كذب ، لأن الجدار لا يريد ، والقرية لا تسأل ، وهذا من أشنع جهالاتهم وأدها على سوء نظرهم ، وقلة أفهامهم ، ولو كان الجواز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا ، أو أكثر كلامنا فاسدا ، لأننا نقول « نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأبنت الثرة ، وقام الجبل » ، وخصص السر ، ونقول كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن ، وإنما كون ، ونقول : كان الله ، وكان بمعنى حدث ، والله جل وعز قبل كل شيء بلاغية ، لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن ... ولو قلنا المتكرر لقوله ، جدارا يريد أن ينقض <sup>(١)</sup> .

كيف كنت أنت قائلا في جدار ، وأيته على شفا انهباء ، وأيه جدارا ماذا ؟ لم يجد بدا من أن يقول جدارا بهم أن ينقض ، أو يكاد أن ينقض ، وأيا ما قال فقد جعله تاملا ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغاه المعجم إلا بمثل هذه الألفاظ <sup>(٢)</sup> .

وتحدث ابن قتيبة عن الإيجاز ، وذكر أنه « ليس محمود في كل موضع » ولا يعتد به في كل كتاب ، بل لكل مقام مقال ، ولو كان الإيجاز محمودا في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن ؛ ولم يفعل الله ذلك ، ولكنه أمال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للإيجاز ، وكرر تارة للفهام <sup>(٣)</sup> .

(١) الكهف ٧٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) أهب الكاتب ص ١٦ .

وفي كتابه « تأويل مشكل القرآن » تحدث تحت باب « الحذف والاختصار » من بعض صور الإيجاز في كتابه رب العالمين « من ذلك أن تحذف المضاف ، وتقيم المضاف إليه مقامه ، وتجعل الفعل له كقوله تعالى : « واسأل القرية التي كنّا فيها » (١) أى سل أهلها (٢) .

كما تحدث عن « الحذف لوجود القرينة المعنوية » ومن الاختصار أن تضمن لغير مذكور كقوله جل وهز « حتى توارث بالحجاب » (٣) يعنى الشمس ، ولم يذكرها قبل ذلك (٤) .

وكذلك تحدث عن الاطناب في القرآن الكريم وسر بلاغته ، وأما تكرار الكلام من جنس واحد ، وبعضه يجرى عن بعض تكراره في « قل يا أيها الكافرون » (٥) .

وفي سورة الرحمن « فبأى آلاء ربكما تكذبان » . فقد أعلنتك أن القرآن نزل بلسان القوم ، وعلى مذاهبهم ، ومن مذاهبهم التكرار . لإرادة التوكيد والافهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز ، لأن افتتان المتكلم ، والمحطاب في الفنون ، وغروجه من شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد .

ويذكر ابن قتيبة شواهد للتكرار في القرآن الكريم ، والسر البلاغي

(١) يوسف ٨٢ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٦٢ .

(٣) ص ٣٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٧٤ .

(٥) الكافرون ١

فيه . قال الله عز وجل ، كلا سوف تعملون ، ثم كلا سوف تعملون ، (١) .  
وقال : فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ، (٢) ، وقال أولى لك فأولى  
ثم أولى لك فأولى ، (٣) . وقال : وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم  
الدين ، (٤) .

كل هذا يراد به التأكيد الدني الذي كرر به اللفظ (٥) .

كما يذكر الاطناب بذكر الخاص بعد العام ، ويشيد به . وأما تكرار  
المعنى بلفظين مختلفين ، فلا شاع المعنى ، والانساع في الالفاظ كقوله  
سبعائه : د فيهما فاكهة وعسل وورمان ، (٦) . والنخل والورمان من الفاكهة ،  
فأفرد ما عن الجملة التي أدخلهما فيها لفضلهما وحسن موقعهما ، وقوله سبحانه  
د حانظروا على الصلوات والصلوة الوسطى ، (٧) .

وهي منها ، فأفرد بها بالذكر ترغيباً فيها ، وتشديد الأمر بها . كما تقول :  
أفنى كل يوم ويوم الجمعة خاصة (٨) .

وأشار إلى بعض الكتابات في كتاب الله ، وأطلق عليها اسم  
« الاستعادة » يقول ابن قتيبة د فن الاستعادة في كتاب الله قوله عز وجل .  
يوم يكشف عن ساق ، (٩) . أن عن شدة من الأمر كذلك قال قتادة .  
وقال إبراهيم : عن أمر عظيم :

- |                                 |                                 |
|---------------------------------|---------------------------------|
| (١) التكاثر ٣ ، ٤               | (٢) النحر ٥ ، ٦                 |
| (٣) القيامة ٣٤ ، ٣٥             | (٤) الانقطار ١٧ ، ١٨            |
| (٥) تأويل مشكل القرآن ١٨٢ ، ١٨٣ | (٦) الرحمن ٦٨                   |
| (٧) البقرة ٢٣٨                  | (٨) تأويل مشكل القرآن ١٨٦ ، ١٨٧ |
| (٩) الفلم ٤٢                    |                                 |

وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى مماناة والجد فيه شمر من سائه قامت بهرت الساق في موضع الشدة . وقال دريد بن الصمة :

كيش الازار خارج نصف ساقه  
بعيد من الآفات ملاح أنجد (١)

وقال الهذلي :

وكنت إذا جاري دعا المضوفة  
أشمر حتى ينصف الساق متزري (٢)

---

(١) كيش الازار : مشمر — ملاح أنجد : ركاب اصعب الأمور ،  
خالب لها .  
(٢) المضوفة : الأمر يهفق منه ويخاف : ونصف الازار ساقه ينصفها  
إذا بلغ نصفها .

### الرماني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ

تحدث عن البلاغة القرآنية . وكان حديثه عنها أم مذكروه في رسالته «النكت في إيجاز القرآن» .

فقد قسم البلاغة في رسالته إلى ثلاث طبقات ، وجعل الطبقة العليا خاصة بالاعجاز القرآني ، وما دونها لبلاغة البلغاء من الناس . وهي طبقة تتفاوت فيها المراتب .

واللاغة عنده ، إيصال المعنى إلى القلب . في أحسن صورة من اللفظ ، ومن ثم فقد حصر البلاغة في عشرة أقسام هي : الإيجاز والتدبير والاستمارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس . والتصريف ، والتضمن والمبالغة ، وحسن البيان .

وفي دراسته للإيجاز ذكر إيجاز الحذف ، وإيجاز القصر . وعرف إيجاز الحذف بأنه : « إسقاط كلمة للاجترأ »<sup>(١)</sup> عنها بدلالة غيرها من الحال ، أو لغوى الكلام

واستشهد لإيجاز الحذف ببعض آي الذكر الحكيم من ذلك : قوله تعالى « واسأل القرية » (١) وقوله : جل شأنه « وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة ذررا . حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها » (٢)

وذكر السر البلاغي للحذف وكأنه قيل : حصلوا على التعيم المقيم . الذي

(١) يوسف ٨٢

(٢) الزمر ٧٣

لا يشوبه التفتيش والتكدير وإنما صار الحذف في مثل هذا أباح من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب . ولو ذكر الجواب: قصر على الوجه الذي تضمنه البيان (١)

وعنى بإيجاز القصر : بنية الكلام على تقليل اللفظ ، وتكثير المعنى من غير حذف ، وجاء له بشواهد كثيرة ، منها قوله تعالى : : « ولكم في القصاص حياة » .

ووازن بين الآية الكريمة ، ومأثر عن العرب من قولهم : القتل أنقى للقتل .

ودال على افضلية الآية من رجوع كثيرة ، تدل على ذوقه السليم ، وحسن المرفف .

وقد استحسنت الناس من الإيجاز قولهم « القتل أنقى للقتل » ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز ، وذلك يظهر في أربعة أوجه : إنه أكثر في الفائدة ، وأوجز في العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة

ثم فصل هذه الأوجه : أما الكثرة في الفائدة فيه ، ففيه كل ما في قولهم « القتل أنقى للقتل » ، وزيادة معان حسنة . منها إبانة العدل لذكره القصاص ومنها إبانة الفرض فيه لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به .

وأما الإيجاز في العبارة ، فإن الذي هو نظير - القتل أنقى للقتل -

---

(١) انظر النكت في إيجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إيجاز القرآن ط دار المعارف ٧٥، ٧٦

قوله : الفصاح حياة . . والاول أربعة عشر حرفا ، والثاني عشرة أحرف

وأما بعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مهقة ، فإن في قولهم  
« القتل أنقى للقتل » تكريرا غيره أبلغ منه . ومتى كان التكرير كذلك فهو  
مقصر في باب البلاغة من أعلى طبقة .

وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس ، وموجود في  
اللفظ ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى  
الهمزة ، لبعد الهمزة من اللام . وكذلك الخروج من الصاد إلى الباء  
أعدل من الخروج من الألف إلى اللام

فياجتماع هذه الأمور التي ذكرناها ، صار أبلغ منه وأحسن ، وإن كان  
الاول بليما حسنا (١)

وفرق الرماني بين الایجاز والتقصير ، فالایجاز بلاغة ، والتقصير من .  
كما تحدث عن الاطناب ، وأشاد به ، وأشار إلى التطويل وهاه ، وذكر  
أن لكل من الایجاز والاطناب موضعا يكون به أول من الآخر ، لأن  
الحاجة إليه أشد والاهتمام به أعظم .

وبرى الرماني أن الاطناب يكون في تفصيل المعنى ، وما يتعلق به في  
المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل . ولما كان الاطناب تفصيلا للمعنى ،  
وتطبيقا لوجه القول ، ونقبا لجرياته ، كان المطنب كالمالك طريقا بعيدا  
لما فيه من النزعة السكبيرة والفوائد العظيمة

أما التطويل فإنه من كما يقول الرماني لأنه تكلف فيه الكثير فيما يمكن

منه القليل . فكان كالمساك طريقاً بعيداً جهلاً بالطريق القريب . فهو نوع  
من الجبل والحيرة والضللال

وفي دراسته للتشبيه عرض لكتنه من آيات الله العينية ، وبيننا ما في  
التشبيه من أسرار بلاغية ، وقيم جمالية

ويقول في قوله تعالى : « والذين كنتم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه  
الظلمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله  
صريع الحساب (١) »

فهذا بيان قد أخرج ما لا يقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه . وقد اجتمع  
في بطلان المتنوع مع شدة الحاجة ، وعظم الفاقة

ولو قيل يحسبه الرائي ماءً ، ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغاً ،  
وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظلمان أشد حرصاً عليه ، وتعلق قلبه به ، ثم  
بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار  
- تعود باقته من هذه الحال -

وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمن  
مع ذلك حسن النظم ، وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة (٢)

ويقول في قوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء . كمثل  
المنكبات اتخذت بيوتا . وأن أوهن البيوت لبيوت المنكبات . لو كانوا  
يعلمون (٣) »

(٢) المرجع السابق ٨٢

(١) النور ٣٩

(٣) المنكبات ٤١



فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبدية ، إلى ما يعلم بالبدية . وقد اجتمعا في ضعف المعتمد ، وهواء المسند . وفي ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين . مع الشعور بما فيه من التوهين (١)

وفي قوله تعالى : « كأنهم أعجاز نخل خاوية » (٢) يقول : « وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبدية إلى ما يعلم ، وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح . وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل (٣) وفي دراسته للاستعارة ، أتى بشواهد كثيرة الاستعارة في كتاب الله ، وحملها ميقنا ما فيها من روعة وجمال .

يقول في قوله تعالى : « اشتعل الرأس شيبا » (٤) أصل الاشتعال النار وهو في هذا الموضع أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزييدا سريعا صارت في الانتشار ، والاسراع كاشتعال النار وله موقع في البلاغة عجيب ، وذلك أنه انتشر في الرأس ، انتشارا لا يتلافى كاشتعال النار (٥)

وفي قوله جل شأنه ، « ضربت عليهم الذلة أينما نفقوا إلا يحيل من الله ، وحيل من الناس » (٦) يقول : حقيقته : حصلت عليهم الذلة ، والاستعارة أبلغ لما فيه من الدلالة على تثبيت ما حصل عليهم من الذلة ، كما يثبت الشيء بالضرب لأن المتكسب به محسوس والضرب مع ذلك يلقي عن الأدلال والنقص . وفي ذلك شدة الإحراج لهم ، والتفجير من حالهم (٧) .

(١) المرجع السابق ٨٤	(٢) الحاقة ٧
(٣) المرجع السابق ٨٤	(٤) مريم ٤
(٥) المرجع السابق ٨٨	(٦) آل عمران ١١٢
(٧) المرجع السابق ٩٠ .	

وقصد الرماني « باللائم » في الطبقة العليا هو القرآن الكريم والمتلائم  
عدم التنافر في حروف الكلمة أو بين الكلمات . وقسم الكلام إلى ثلاث  
طبقات : كلام متنافر ، وكلام متلائم في الطبقة الوسطى ، وكلام متلائم في  
الطبقة العليا وذكر أن المتلائم في الطبقة الوسطى هو الكلام البليغ . والفرق  
بين القرآن والكلام البليغ كالفرق بين الكلام البليغ والمتنافر .

ومثل للكلام المتنافر البيت المشهور :

وقبر حرب بمكان قفر رليس قرب قبر حرب قير  
كما بين أن مرجع التنافر هو القرب الشديد ، أو البعد الشديد لمخرج  
الحروف (١)

وأراد الرماني « بالفواصل » حروف متشكلة في المقاطع توجب  
حسن أفهام المعاني ، والفواصل عنده بلاغة ، أما الاسجاع فمبب ، لأن  
الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الاسجاع فالمعاني تابعة لها ، وهو قلب لما  
توجبه الحكمة في الدلالة (٢)

ويلاحظ أنه قهر السجع على النوع الثقيل المستكره ، وإن لم يتم فلم  
يسم ما جاء على أسلوبه في القرآن سجعا ، وإنما سماه فاصلة .  
وكلامه فيه نظر ، لأن السجع الحسن هو ما يتطلبه المعنى واستدعاه . أقام  
ونوه الرماني بالفواصل القرآنية ، وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة  
لأنها طريق إلى أفهام المعاني ، التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها  
عليها (٣)

ويرى الرماني أن الفواصل على وجهين : أحدهما على الحروف المتجانسة  
والأخرى على الحروف المنقاربة .

(٢) المرجع السابق ٩٧

(١) المرجع السابق ٩٤ - ٩٦

(٣) المرجع السابق ٩٨

فالحروف المتجاذبة كقواه تعالى د طه . ما أنزانا عليك القرآن لتدق .  
إلا نذكرك لمن يخشى (١)

وكقواه : د والطور وكتاب مسطور . ، الآيات .

وأما الحروف المتقاربة فكالميم من النون : كقواه تعالى : الرحمن الرحيم  
مالك يوم الدين (٢) وكالدال مع الباء كقواه تعالى ق . والقرآن المجيد ثم  
قال هذا شيء عجيب

وإنما حسن في الفواصل : الحروف المقاربة لأنه يكتنف الكلام من  
البيان . ما يدل على المراد . في تمييز الفواصل والمقاطع ، لما فيه من البلاغة  
وحسن العبارة (٣)

هذا وبأسلوب الرمان الأخاذ ، وعباراته المنيرة يكمل رسالته في  
الاصحاح القرآني .

(٢) الفاتحة ٣ ، ٤

(١) طه ، ٢

(٣) الفاتحة ٩٨

### الخطابي: المتوفى سنة ٣٨٨ هـ

تناول في رسالته ، البيان في اعجاز القرآن ، قضية الاعجاز ، وذكر أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الالفاظ في أحسن نظم التأليف ، مضمناً أصح المعاني ، من توحيد له عزت قدرته وتنزيه له في صفاته ، ودعاه إلى طاعته . من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وذجر عن مساوئها واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله (١) بمن عصى وعاند منهم ، منبهاً عن الكوائن (٢) والمدلول عليه ليكون ذلك أوكد للزوم مادعا إليه ، وأنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ، ومعلوم أن الاتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها ، حيث تنتظم وتفسق أمر تعجز عنه قوى البشر .

ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وهجروا عن معارضته بمثله ، أو منافضته في شكله (٣) .

كما نصب نفسه لرد على الطاعنين بوجود كلمات في كتاب الله لم تقع موقعها إلا خمس الأشكال والتي ذكروا منها قوله تعالى : « فأكله الذئب » (٤) وادعوا أنه يستعمل مع الذئب الافتراس ونحوه ، ودحض حججهم ، وأبطل

(١) مثلات : جمع مثله بمعنى العقوبة والتشكيل .

(٢) الكوائن : جمع كائنة وهي الحادثة .

(٣) البيان في اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ط دار المعارف

٢٧ ، ٢٨

(٤) يوسف الآية ١٧

هو ارم . بقوله : « فاما قوله تعالى : فأكله الذئب » فإن الافتراض منناه في فعل السبع القتل لحسب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم إنما ادموا على الذئب أنه أكله أكلا ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلا ولا عظما . وذلك أنهم عانوا مطالبة أبيهم أيام باثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل (١) .

كما أشار إلى السرايلغى لتكرار في كتاب رب العالمين وأما ما عايناه من التكرار فإن تكرار الكلام على ضربين أحدهما مذموم ، وهو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى ، لم يستفيدوه بالكلام الأول ، لأنه يكون حينئذ فضلا من القول ولنوعا ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع .

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه ، وتدعو الحاجة إليه فيه ، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار .

ولما يحتاج إليه ، ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ، ويخاف بترك وقوع الغلط والنسيان فيها ، والاستهانة بقدرها ، وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على العمل : عجل عجل ، وادم ادم ، كما يكتب في الأمور المهمة على ظهر الكتف مهم مهم مهم . ونحوها من الأمور ، وكقول الشاعر :

هلا سألت ججوع كلب سدة يوم ولوا أين أين  
وقول الآخر :

يال بصر أنثروا لي كليبيا يابكر أين أين الفرار

وقد أخبر الله عن وجل بالسبب الذي من أجله كرر الأفاضل ،  
والأخبار في القرآن فقال سبحانه ، ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ، (١)  
وقوله تعالى ، وصرنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم  
ذكرا ، (٢) .

وأما سورة الرحمن فإن الله سبحانه غايب بها الثقلين من الإنس والجن  
وعدد عليهم أنواع نعمه التي خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلا من فصول النعم  
جددا أقرهم به وانتصاهم الشكر عليه . وهي أنواع مختلفة وفنون شتى ،  
وكذلك هو في سورة المرسلات ذكر أحوال يوم القيامة وأحوالها ، فقدم  
الوعيد فيها ، وجمع القول عند ذكر كل حال من أحوالها لتذكرون أبلغ في  
تقرآن ، وأؤكد لأقامة الحجة والاعذار ، ومواقع البلاغة متباعدة مواضعها  
من الحاجة .

فإن قيل إذا كان المعنى في تكرير قوله ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ،  
تجديد ذكر النعم في هذه السورة ، وانتصاهم الشكر عليها ، فما معنى قوله  
يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، (٣) . ثم أتبعه بقوله  
فبأي آلاء ربكما تكذبان ، وأي موضع نعمة ههنا . فهو إنما يتوهم  
بأنهم السعير والدخان المستطير .

ويجب الخطأ في قيل إن نعمة الله تعالى فيها أنذر به ، وحذر من  
توابعاته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمة على ما وعد  
ويشتر من ثوابه على طاعته ، اهرغبوا فيها ويحرصوا عليها ، وأما تحققي  
معرفة الشيء بأن يعتبر بعنده ليؤتف على حده .

وأرعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتهما ، فإنهما متوازيان في موضع

النعيم بالتوقيف على مآل أمرهما ، والإبادة عن عوالب مصيرهما . وعلى هذا ما قاله بعض حكماء الشعراء .

والخادقات وإن أصابك بؤسها فهو الذي أنباك كيف نعيمها

وذكر السير البلاغي للإيجاز في بعض آي الذكر الحكيم .  
وأمّا ما عابوه من الحذف والاختصار في قوله سبحانه : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » (١) . فإن الإيجاز في موضعه ، وحذف ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة ، وإنما جاز حذف الجواب في ذلك وحسن لأن المذكور منه يدل على الخنوف ، والمسكوت عنه من جوابه ، لأن المقول من الخطاب هذا أهل الفهم كالمتطوق به والمعنى : لو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن .

وقد قيل إن الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب في الحذف كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لكان مقصوراً على الوجه الذي تناوله الذكر لحذف الجواب كقوله لو رأيت علياً بين الصفيين ! . وهذا أبلغ من الذكر لما وصفنا .

وكذلك قوله سبحانه : « وسبق الذين اتقوا وهم إلى الجنة ذمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها . . . » الآية (٢) أو المعنى كأنه قيل لما دخلوها حصلوا على النعيم المقيم الذي لا انقطاع له ، ولا تكدير فيه (٣) .

(٢) الزمر ٧٣

(١) الرعد ٣١

(٣) المرجع السابق ٥١

وللجانِبِ ما ذكره الخطابي من بيان الإيجاز القرآني ، والرد على الطاعنين في أسلوبه ، ودحض أباطيلهم ، وبيان السر البلاغي للإيجاز بالحذف ، والإعجاب بالتركيب في كتاب رب العالمين .

فقد أشار - أيضاً - إلى بعض الاستعارات في كتاب الله ، وعالجها بما أوتي من فكر نير ، وإحساس مرهف ، فذكر السر البلاغي لهذه الاستعارات ، ووضح ما فيها من حسن وجمال .

« وأما قوله سبحانه : هلك عن سلطاناه (١) . وزعمهم أن الهلاك لا يستعمل إلا في تلف الأعيان ، فإنهم ما زادوا على أن عابوا أفصح الكلام وأبلغه . وقد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة كقوله عز وجل : وآية لهم الليل فسلخ منه النهار (٢) . والسلخ ههنا مستعار ، وهو أبلغ منه لو قال : نخرج منه النهار . وإن كان هو الحقيقة . وكذلك قوله سبحانه : فاصدح بما تومر (٣) . هو أبلغ من قوله : فاعمل بما تؤمر . وإن كان هو الحقيقة ، والصدح مستعار ، وإنما يكون ذلك في الزجاج ونحوه من فلز الأرض (٤) . ومعناه المبالغة فيما أسر به حتى يؤثر في النفوس والقلوب تأثير الصدح في الزجاج ونحوه . وكذلك قوله سبحانه : هلك عن سلطاناه . وذلك أن الذهاب قد يكون على مرادة المود ، وليس مع الهلاك بقيا (٥) ولا رجى . وقد قيل إن معنى السلطان ههنا الحجة والبرهان (٦) .

(١) الحاقة ٢٩

(٢) يس ٣٧

(٣) الحجر ٩٤

(٤) القلزم : عنصر كيميائي يتميز بالهريق المعدني ، والغالبية لتوصيل

الحرارة والكهرباء .

(٥) بقيا : بضم الباء . وسكون القاف : الابقاء

(٦) المرجع السابق ٤٤



وقد ختم رسالته ببيان وجه من وجوه الإعجاز رأى أنه قد خفى على كثير من الناس ، وقصد به تأثير القرآن في النفوس ، وصنعه في القلوب ، .

« قلنا في إعجاز القرآن وجه آخر ، ذهب عنه الناس ، فلا يذكاه يعرفه إلا الشاذ من آحاديثهم ، وذلك صنعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنه لا تسمع كلاما غير القرآن ، مظلوما ، ولا منشورا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من الفظة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ، ما يخلص منه إليه ، تسبثر به النفوس ، وتشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، قد عراها الوجيب والقلق .

وتنشأها الخوف والفرق ، تقهر منه الجلود ، وتنزع له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكأن من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال الدرب وفناكها ، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلشوا حين وقفت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسلكه ويدخلوا في دينه ، وصارت هدواتهم موالاة ، وكفرهم لئاما .

خرج عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمدأفته فصار إلى دار أخته ، وهي تقرأ سورة منه ، فلما وقع في سمه لم يلبث أن آمن وبعت الملك من قريش عتية بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوافقوه على أمور أرساوه بها ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من حم السجدة ، فلما أقبل عتية ، وأبصره الملك من قريش قالوا : أقبل أبو الوالد بنير الوجه الذي ذهب به .

ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن في الموضع على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به ، وعادوا إلى المدينة ، فأظهروا الدين بها ، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن .

ولما سمعته الجن لم تنفك أن قالت ، إنا سمعنا قرآنا عجبا يردى إلى  
الرشد فآمننا به (١) .

ومصدق ما رصفناه في أمر القرآن في قواه تعالى د لو أنزلنا هذا القرآن  
على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، (٢) .

وفي قواه : د الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها . مثاني تتشعر  
منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله (٣) .

وقال سبحانه : د وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا (٤) ، وقال سبحانه :  
د أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، (٥) وقال جل شأنه :  
د وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا  
من الحق ، (٦) .

(١) الجن ٢ ، ١	•	(٢) الحشر ٢١
(٣) الزمر ٢٣		(٤) الأنفال ٢
(٥) التوبة ٥١		(٦) المائدة الآية ٨٣

### الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ

يتجمل « الشريف الرضى » بفكره العالم ، وتذوقه الأدب ، ومن ثم فقد ملكت البلاغة القرآنية والنبوية قواده ، وتبوأ مكاناً علياً من نفسه . فألف فيما للكتب الكثيرة التي تعكس الصورة المشرفة لسمه أفقه ، وغزارة علمه ، ووفرة ثقافته .

فكتاب « تلخيص البيان في مجازات القرآن » كمنف لطيف دقيق لوجوه البيان في آية آل الكريم .

ولذا كان كتاب مجاز القرآن لآي عديدة لا يدخل في باب المجاز بمعناه البين ومدلوله البلاغي المقابل للحقيقة عند علماء البيان . كما أن إشارات الجاحظ وتلميذه بن قنينة إلى المجازات والاستعارات القرآنية بالمعنى الاصلاحي عند البيانين لم تكن إلا لمعا منتشرة في البيان والتبيين ، والحيوان ، وتأويل مشكل القرآن ، ولم تأخذ ذلك المصح القائم الكامل ، الذي سلكه « الشريف الرضى » في تلخيص البيان . علم أن كتاب لشريف أول كتاب ألفت لغرض واحد وهو متابعة لمجازات الاستعارات في كلام الله ، سورة سورة ، وآية آية . ومن ثم كانت القيمة العلمية لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في هذا الغرض ، فهو يقوم في التراث العربي الإسلامي وحده شاهداً على أن الشريف الرضى خطاً أول خطوة في التأليف في مجازات القرآن ، واستعاراته تأليفاً مستقلاً . ولم يأت عرضاً في خلال كتاب ، أو باباً من أبواب مصنف (١) .

هذا إلى جانب كتابه الكبير « حقائق التأويل في مقابله التنزيل » . وقد ألفه الشريف لدفع الشبه حول كتاب الله ، ودحض الأباطيل التي

(١) مقدمة تلخيص البيان للأستاذ محمد عبد الغني حسن ٢٩

لا كتبها أسنة الملحمين والمفرحين ، وتقرير الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، وفيه تأريلات دقيقة لكثير من الآيات القرآنية ، وبحوث بلاغية قيمة ، دقت أسناده ابن جني إلى الإشادة به ، وإطرائه بقوله : « وصنف كتاباً في معاني القرآن الكريم يتعذر وجود مثله ، دل على توسعه في علم النحو واللمة (١) » .

وكتاب « المجازات النبوية » الذي سنقطف منه ثماراً شبيهة هند الكلام من البلاغة النبوية إن شاء الله .

#### النظر في المفردات :

تحدث الشريف عن الكلمات الموحية في كتاب الله ، وعبر بلاغتها وجمالها يقول في قوله تعالى « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي » (٢) .  
إن في هذا الكلام فائدة لطيفة . وهو أن قوله سبحانه : « يا أرض ابلعي ماءك » أبلغ من قوله « يا أرض اذهبي بماءك » لأن في الابتلاع دليلاً على إذهاب الماء بسرعة ألا ترى أن قولك « تخيرك » أبلغ هذا الطعام ، أبلغ من قولك « كل هذا الطعام » إذا أردت إيصاله إلى جوفه بسرعة .

وكذلك الكلام في قوله سبحانه « ويا سماء اقلعي » لأن لفظ الإقلاع ههنا أبلغ من لفظ الانجلاء ، لأن في الإقلاع أبعداً معنى الإسراع ، يلازمه السحاب كما قلنا في الابتلاع ، وذلك أدل على تقاذق القدرة وطواعية الأمور من غير وقفة ولا لبثة (٣) .

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٥

(٢) هود ٤٤

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٦٢ .

كما يحميد بحسن الكلمة وعذوبتها ، وتلاؤم حروفها ، وقوله سبحانه :  
« ألا أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه » ، إلا حين يستشفون ثيابهم ،  
ويعلم ما يسرون ، وما يملنون ، (١) .

والمراد بذلك — والله أعلم — أنهم يثنون صدورهم على عداوة الله  
ورسوله ﷺ ، وذلك كما يقول القائل : هذا الأمر فى طى ضميرى ، أى  
قد اشتمل عليه قلبى . فيكون قوله تعالى : « يثنون صدورهم » بمنزلة  
قوله : « يملنون صدورهم » . ولفظ يثنون أعذب استعارة وأحسن  
جاء (٢) .

#### الافتات :

ذكر الشريف أنما لهذا الأسلوب من نزلة رفيعة فى مضمار البلاغة  
القرآنية . كما عني بيان السر البلاغى فيه .

فقد اعترض على من قال فى قوله تعالى حكاية عن أم مريم « رب إني  
وضعتنا أنثى . والله أعلم بما وضعت » (٣) . لو كان من صلة قوله أم مريم  
لكانت تقول : « وأنت أعلم بما وضعت » ، لأننا مخاطب الله سبحانه ،  
وبين الشريف سلامة هذا الأسلوب ، وجريانه على سنن الفصاحة ، ولبابه  
البلاغة .

« قلت أنا : وهذا القول غير سديد ، لأنه لا يمتنع أن يكون ذلك من  
قول أم مريم ، وتقول مع ذلك : « والله أعلم بما وضعت » على جرى العادة  
فى خطاب المعظم من الدول . من كاف المواجهة إلى ما ، التكنية ، وفى

(٢) المرجع السابق ١٥٨

(١) هود ٥

(٤) آل عمران ٣٦

القرآن مثل ذلك كثير في خطاب الله تعالى ، وخطاب غيره ، من خروج  
عن كناية إلى مواجهة ، ومن مواجهة إلى كناية ، ألا ترى إلى قوله سبحانه  
« الحمد لله رب العالمين » ثم قال : إياك نعبد وإياك نستعين (١) وإلى قوله  
تعالى : « حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بوم بريح طيبة » إلى غير ذلك  
عما في معناه ، (٢) .

ودل على جمال هذا الأسلوب بأنه مما يرد في كلام العرب ، وأشعارها  
فتميز به قدرتها على التصرف في أقطار الكلام ، والتفصح في أعطان  
الخطاب ، فتارة يكون مواجهه ، لأنه أبغ من المخاطبة ، وتارة يكى عن  
الناهين لأن ذلك أشد تصرفاً ، وأغرب طريقاً ومذهباً .

وعلى ذلك قول أبي كبير الهذلي :

يا لطف نفسي كان جدة خالد  
وياض وجهك للزباب الأعفر

فانتقل من الغيبة إلى المواجهة شجاعة في البلاغة ، وأبداً في مسالك  
الفصاحة (٣) .

#### إقامة الظاهر مقام المضمَر :

نحدث « الشريف الرضي » عن إقامة الظاهر مقام المضمَر في كتاب الله ،  
ومافى هذا الأسلوب من أسرار بلاغية .

يقول في قول تعالى : « والى الله ترجع الأمور » (٤) .

(١) الفاتحة ٢ - ٤

(٢) يونس ٢٢ - انظر حقائق التأويل في مقابله التذليل ٨٨

(٣) المرجع السابق ٣٥٧ (٤) آل عمران ١٠٩

فإن قال قائل : ما معنى تكرير اسم الله تعالى في هذه الآية ، وكان ذكره في الموضع الأول يعني عن اعدائه فيها بعد ، وكان وجه الكلام أن يقول تعالى : « وفيه ما في السموات والأرض ، وإليه ترجع الأمور » . قيل له إنما أعيد اسم الله تعالى ههنا للتفخيم والتأكيد ، ومن عادة العرب إذا أجروا ذكر الأمر يعتمدون تفخيمه ، ويقصدون تعظيمه ، بأن يعيدوا لفظه مظهراً غير منضم ، إذا كان الاضمار يغطىء من الاسم ، ويضرب ، بقدر ما يرفع منه الإظهار ويضعفه ، وعلى ذلك قول الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء  
نقص الموت ذا الغنى والفقر

فلو قال يسبقه شيء لكان مستقيماً ، ولكنه أعاد الاسم تفخيماً ، ولم يرع أن ثني ذكره حتى ثلثه مبالغة في الترض الذي رماه ، والمعنى الذي نجاه ، ومثل ذلك قول أبي النشيتاش النهشلي :

فمض معدداً أو مع كرمي فاني  
أرى الموت لا يتجو من الموت ماري

واستشهد الشريف برأى شيخه ابن جني على بلاغة هذا الأسلوب وروعه .

يقول ابن جني في قوله تعالى : « فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجوا من السماء بما كانوا يفسقون » (١) .

إنما كرد تعالى ذكر الذين ظلموا ، ولم يقل ، وأنزلنا عليهم ، لأن ذلك أشد مبالغة في ذمهم ؛ وأدخل في باب التفخيم لذكرهم ، ولأن إظهار اسم المستحق للعقاب ، مع الإخبار بوقوعه به أبلغ من إضماره ، وأجدر بخوف الخائف من مشاركته في وجه استحقاقه .

وفي الجملة فالظاهر أنظم من المضمحل ، وينبغي ألا يوضع اسم الله إلا في مواضع التفعيم ، ومطابق التعظيم ، فلذلك حسن تكريره في هذه الآية ، لأن قواه تعالى : د وإلى الله ترجع الأمور ، دال على عظم ملكه ، وقوة سلطانه وذلك موضع تفعيم فحسن فيه التكرير (١) :

#### الاجاز :

ذكر الشريف الاجاز ، وأشاد ببلاغته ، كما ذكر التعلويل وعابه ، ونفى وجوده في القرآن الكريم ، وقد يسقط من القرآن كالم وحروف ، ويدل على الخطاب عليها اختصارا وحذف ، وإبعادا في مناهب البلاغة ، وأغرافا في منازع الفصاحة ، ولأن فيها يتيق أدلة على مايلق ، إذ كانت البلاغة عند أهل اللسان لغة دالة ، وأشارة مقتعة .

ولا يجوز أن تراد فيه الكلام والحروف التي ليس فيها زيادة معان ، أو أدلة على معان ، لأن ذلك من قبيل النفي والفحاشة ، كما أن الأول من دلالت الاقتدار والفصاحة (٢) .

يقول في قواه تعالى - حكاية عن قوم شعيب عليه السلام - د أصلاتك تأمرك أن تترك مايميد بأوثنا ، (٣) .

وليس يصح على ظاهر الكلام أن يؤمر شعيب بأن يترك قومه شيثام عليه ، وإنما المعنى - واقه أعلم - د أصلاتك تأمرك أن تأمرنا بترك مايميد

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) المرجع السابق ١٧٠ .

(٣) هود ٨٧ .



آبائنا ، فاكتملى بذكر الامر الاول من ذكر الامر الثانى ، لانه كالمعلوم من نحرى الكلام وهذا من غوامض أسرار القرآن (١) .

كما نحدث عن الإيجاز بحذف جواب الشرط ، ونوه ببلاغته : « وقوله سبحانه حاكيا من لوط عليه السلام قال : « قال لو أن لى بكم قوة ، أو أوى لى ركن شديد ، وجاء جواب « لو » ههنا محذوفا ، والمعنى « لو أننى على هذه الصفة لحلت بكم وبين ما همتم من الفساد . وأرد تمويه من ذنوب فحشاء » ، والحذف ههنا أبلغ لانه يوم المتوعد بمظلم الجزاء ، وبغليظ النكال ، ويصرف وهمه لى ضروب العقاب ، ولا يقف به عند جفئ من اجتاس المخوقات المتوقعات (٢) .

وذكر الشريف الإيجاز بحذف الصفة : يقول فى قوله تعالى لنوح عليه السلام « أنه ليس من أهلك » (٣) . أى ليس من أهلك المقتدين بك ، والسالكين لمذاهبك (٤) .

كما ذكر الإيجاز بحذف الموصوف . يقول فى قوله تعالى : « ليس لوقعتها كاذبة (٥) » ، « وقيل أيضا ليس لها قضية كاذبة لاختبار الله سبحانه بها ، وتيام الدلائل عليها ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، وذلك فى كلامهم أظهر من أن يتماطى بيانه ، وقيل أيضا : ليس لها نفس كاذبة فى الخبر عنها والأعلام بوقوعها ، والمعنيان واحد (٦) .

(١) تلخيص البيان ١٦٦

(٢) المرجع السابق ١٦٣

(٣) هود ٤٦

(٤) الواقعة ٢

(٥) حقائق لتأويل ١٠٨

(٦) تلخيص البيان ٣٢٥

#### الاطناب :

تحدث الشريف عن الاطناب ، ورغب فيه إذا كان المقام يقتضيه .  
والغرض يستدعيه ، وحاب التطويل ، ونفر منه ، وتقي وجوده في القرآن  
الكريم .

ولا يجوز أن تزداد في القرآن الكريم الكلام والحروف التي ليس فيها  
زيادة معان ، أو أدلة على معان ، لأن ذلك من قبيل المعنى والقهاة (١) .

وإن كلامه تعالى أفصح الكلام ، وأشدّه انحرافاً في سلوك الفصاحة .  
ولإبعاداً في مراعى البلاغة ، وليس من البلاغة أن يقوله تعالى إذا أردنا أن  
يعلمنا أنه أعطى زيدا تسعة دراهم : أعطيت زيدا درهماً وثلاثة وأربعة ،  
فيغرق العدد في مثل هذه الحال لأن قوله : أعطيت زيدا تسعة دراهم أحصر  
وأقصر ، وهو بمذهب العلماء أشبه وأليق ، وليس موضع هذا القول من  
مواضع الاسهاب والاطناب ، فيكون بسط الكلام فيه أبغ وأشقى وأقبح .

ويذكر الشريف السر البلاغي للإطناب في قوله تعالى : من كان يظن  
أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع  
فليتظر هل يذهب كيد ما يقيظ ، (٢) . بقوله وقوله تعالى : فليمدد بسبب  
إلى السماء ، والسبب هنا الجبل والسماء ههنا سقف البيت الذي يحله . فسكانه  
تعالى قال : فليمدد بسبب إلى السماء ، فليتذكر به ، إلى أن ينقطع الجبل ،  
من فرط تراجعه فيه ، وجذبه إياه ، فليتذكر هل ما يفعله بنفسه من ذلك  
ما غاظه من قوة أمر الرسول ، وورى زاده ، وارتفاع عماده .

ألا ترى إلى هذا الاسهاب في هذا المكان ، كيف وقع وقعه ، وأصاب

غرضه . وقد كان تعالى قادراً على أن يقول : من كان يظن أن لن ينصره الله ورسوله ، فليخفق نفسه غيظاً ولكن لما كان في بسط هذا الكلام ، والاتساع ، من مذاهبه من زيادة التهمة على المراد به وفرط الغيظ المقصود بإسماحه حسن البسط والتوسع فيه .

ألا ترى إلى مقدار الفرق بين قول القائل لعدي بن زهراء ، وعدو يفارعه :

إن كنت مغيظاً من نعمة الله علي ، وحسن بلاني عندي ، فأقبل نفسك ، وبين قوله : فأجز أنأمالك ، وابقاً عيتك ، واجدع أنفك ، واذبح نفسك ، ويريد في ذلك تفحيش صفة الذبح عليه بقوله : ونفذ مدية حادة وأسل دمائك ، وبين الموضعين فرق واضح وتمييز ظاهر ، فافهم ذلك ، فإنه من أسرار القرآن الخفية ، وبدائعه العجيبة التي تزداد على التزح جماعاً ، وعلى القدر اضطراباً (١) .

وواضح أن الشريف بهذا القول الممتع ، وتلك الحجج القوية يدخل الاطِّاب في الإعجاز البلاغي القرآن الكريم .

ويذكر الشريف السر البلاغي ، الاطِّاب فيما يسوته من شواهد على بلاغة القرآن وإعجازه .

يقول في قوله تعالى : ما يأكلون في بطونهم إلا النار ، (٢) .

وقوله سبحانه : في بطونهم ، زيادة معنى ، وإن كان كل أكل إنما يأكل في بطنه ، وذلك أنه أنقطع سماعاً ، وأشد إجماعاً ، وليس قول الرجل

(١) أنظر المرجع السابق ٣٠٩ - ٣١١ .

(٢) البقرة الآية ١٧٨ .

للآخر : « إنك تأكل النار » مثل قوله : « إنك تدخل النار في  
بطنك » (١) .

إن الشريف في وقفته البارحة لدى قول الله « في بطونهم » يرد على قوم  
يحسبون الإيجاز اختصاراً في اللفاظ وحدها ، فهم يمدون ذكر كل ما يستطيع  
فهمه من العبارة لغو لا فائدة فيه ، وعلى أساس هذه النظرية المخطئة ، وجبت  
فقدت ظلمة لبعض المجيدين من الباطن .

ولكن الشريف بحسبه الأدبي يعلم أن القرآن كتاب افناع عقلي ، وافناع  
نفسى ، فهو من الناحية الفكرية مقتنع ملزم كل من له قلب ، أو ألقى  
السمع .

وهو من الناحية النفسية يتمتع ذوى الحس الأدبي ، من يرون اللفاظ  
ظلالاً توحى ، وإيماءات يشع ، فكلمة « بطونهم » المألوفة بالنار ترمز  
لأعانة هو لا يأخذ بالقلوب ، وإذا كان الأكل لا يد أن يتجه إلى البطن ،  
فإن تصوير ذلك باللفظ مما يعيد المنظر الهائل مفاجئاً مفرعاً حين يتصوره  
الخيال في أجمع مثال (٢) .

ويدفع الشريف شبهة عن التكرير في بعض آى الذكر الحكيم ، ويذكر  
السر البلاغى في هذا التكرار .

فإن قال قائل إنه تعالى : كرر قوله : « ويحذركم الله نفسه » في مواضع  
متقاربين من هذه السورة . فما الفائدة من ذلك ؟

فالجواب : إن ذلك ليس بتكرار ، لأن الذى عناه بالآية الأولى ،

(١) أنظر المرجع السابق ٣٠٩ - ٣١١ .

(٢) راجله العالم الإسلامى د/ محمد رجب البيومى .

غير الذى عناه بالآية الأخرى ، لأن الأولى إنما حذرهم فيها عقابه على موالة الكفار والثانية ، إنما حذرهم فيها ذلك على موافقة سائر المعاصى ، لحسن إعادة التحذير عند كل منتهى عنه ، ليكون الحرف أعم ، والزجر أبليغ ، ولعل أيضا أن المجرمين فى العقاب على حد سواء ، فيكون التناهى عند أحدهما كالنتاهى عن الآخر .

وقد يجوز أيضا أن تكون الآية الثانية نزلت بعد الأولى بزمان متراخ لحسن التكرير فيها ، لانعراج ما بين الأولى وبينها (١) .

ولما كانت الحروف الزائدة فى الكلام أدون قائمة هيبة فيه ، وثلم لبلاغته فقد نزه الشريف القرآن الكريم عن هذه الزيادة ، مقررًا إعجازه لبلاغته .

يقول الشريف : « وهذه منزلة ترفع عنها كلام الله سبحانه الذى هو المتعذر المعوز ، والمتنوع المنجز ، وكل كلام إنما هو متصل بخلق سبقه ؛ وقاصر عن بلوغ أدنى غاياته ؛ بل قد يرتفع عن هذه المنزلة كلام الفصحاء المتقدمين ، والبلغاء المحققين فضلا عما هو أعلى طبقات الكلام ، وأبعد مقصورات الأنام .

وإني لأقول أيضا : إنه لو كان كلام يلحق بغيره ، أو يجرى فى مضاربه ، بعد كلام الرسول ﷺ ، لكان ذلك كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، إذ كان منفردا بطريق الفصاحة ، لا تراحمه عليها المناكب ، ولا يلحق به قوله (٢) فيما السكادح الجاهد .. وكلامه رضى الله عنه مع ما ذكرناه من علو طبقته وجلو طريقته ، وانفراد طريقته . فإنه إذا حول ليلحق

(١) حقائق التأويل ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) به قوله : يسموه وارثناه .

خاتمة من أداني غايات القرآن وجدناه ناكها متفاسما ، وممة قرا راجعا ،  
وواقفا بليدا ، وولما بعيدا . على أنه الكلام الذي وصفناه بسبق المحارن ،  
والعمل على المسامين ، فما ظنك بما دون ذلك من كلام الفصحاء ،  
والاغات البغاء الذي يكون بالقياس إليه هباء منثورا ؛ ودرابا غرورا .

وهذا الذي ذكرناه أيضا من معجزات القرآن إذا تأمله المتأمل ، وفكر  
فيه المفكر ، إذ كان الكلام المنتهى الفصاحة ، العالى الذروة ، البعيد  
المرمى والغاية ، إذا قيس إليه ، وقرن به شال في ميزانه ، وقصر عن رهاقه ،  
وصار بالإضافة إليه قاصدا بد السبوح ، وقاصرا بد البلوغ ، ليصدق  
فيه قول أصدق القائلين سبحانه إذ يقول : وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه  
الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (١) .

ويحضر الشريف حجج من زعم زيادة الواو في بعض آيات الله الينات  
فيذكر رأيا المبرد ويستحسنه : « وقد كان بعض من رام كسر المذهب الذي  
ققدم ذكرنا له عن المبرد ، واختيارنا طريقته فيه سألته عن قول الله سبحانه  
« هذا بلاغ للناس ولينذروا به » (٢) .

فقال قد علمنا أن هذه اللام لام كي ، فما معنى لإدخال الواو عليها ، إن لم  
تقدرها من يدة ؟

فقال : أبو العباس لسائله : « أأنت تعلم أن قوله تعالى : « هذا بلاغ »  
مصدر ولينذروا به فعل « موضوع في موضع المصدر ، لأن الأفعال تدل على  
مصادرهما ؟

(١) فصلت ٤١ ، ٤٢ - أنظر حقائق التأويل في متشابه التزيل .

١٦٦ - ١٦١ .

(٢) إبراهيم ٥٢ .

فالتقدير أن يكون هذا بلاغ للناس وإنذار ، فبطل أن تكون الواو جاءت لغیر معنى .

وقد أحسن أبو العباس في هذا الجواب غاية الإحسان (١) .  
ويواصل الشريف تفنيد الآراء الباطلة ببيانه الشافي ، ويشيع القول حتى لا يكون ثم حاجة لمزيد .

فيدفع رأيا عن زيادة الواو في قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها (٢) » بقوله : « فليس الأمر على ما ظنه ، لأن تقدير ذلك عند المحققين من العلماء « حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ، دخلوها ، وقال لهم خزن بها سلام عليكم ، لأن في تفتيح الأبواب لهم دليلا على دخولهم . فترك ذكر الدخول لما في القرآن من الدلالة عليه (٣) .

#### الاستعارة :

تحدث الشريف الرضى عن « الاستعارة » في كتاب الله بأسلوبه الشيق الذي يتجمل بذوق الأديب ، ورقة الشاعر ، وحسن البليغ .

يقول في قوله تعالى : « فآمنوا بالله ورسوله ، والنور الذي أنزلنا » (٤) .

وهذه استعارة ، والمراد بالنور ههنا القرآن ، وإنما سمى نورا ، لأنه يهتدى في ظلم الكفر والضلال ، كما يهتدى بالنور الساطع والشمس اللامع . وضياء القرآن أشرف من ضياء الأنوار ، لأن القرآن يهتدى إليه القلب . والنور يهتدى إليه الطرف (٥) .

(١) حقائق التأويل ١٦٨ ، ١٦٩ (٢) الزمر ٧٣ .

(٣) المرجع السابق ١٦٩ ، ١٧٠ (٤) للتفاين ٨ .

(٥) تلخيص البنان ٣٣٥ .

وفي قوله تعالى : الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ،  
والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، (١)  
يقول : وهذه استمارة . والمراد بها اخراج المؤمنين من الكفر إلى الإيمان ،  
ومن النفي إلى الرشاد ، ومن عمياء الجهل إلى بصائر العلم .

وكل ما في القرآن الكريم من ذكر الاخراج من الظلمات إلى النور ،  
فالمراد به ما ذكرنا . وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي  
يتسكع فيها الخابط ، وبطل القاصد ، والإيمان كالنور الذي يؤهله الخائر ،  
ويبتدى به الجائر ، لأن عاقبة الإيمان مضيئة بالإيمان والثواب ، وعاقبة  
الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب . وفي لسانهم وصف الجهل بالعمى والعمه ،  
ووصف العلم بالبصر والجلية ، يقال قد غم عليه أمره ، وأظلم عليه رأيه ،  
إذا كان جاهلا بما يرتبه ويقمله ، ويقال في تقيض ذلك : هو على الراضية  
من أمره ، والجلية من رأيه . إذا كان عالما بما يورد ويصدر فيها يأتي  
ويذكر (٢) .

إن تشبيه الكفر والإيمان بالظلمات والنور ، لا يحتاج إلى فصل بيان  
لوضوحه ، ولكن الشريف لا يقف عند ذلك ، بل يتناول أسرار التشبيه  
في الآية الكريمة ، ليرسم صورة الضال المتخبط في ظلام الخيرة ، واليهتدى  
المستريح إلى ضياء اليقين . ثم يهدف ذلك بعبارة توكيدان مذهب العرب في  
الحديث عن الجاهل الأعمى في تصرفه ، والعالم الخبير بموقفه كيلا يدع في  
القول زيادة .

ولدى الشريف ما يعرف بالحاسة البَيَّانية ، تلك التي تدرك مناحي الجبال  
في كل لفظ يسطر ، فهو حين يقرأ الآية يتأملها تأمل الفنان المستشف الذي

(١) البقرة : ٢٥٧

(٢) المرجع السابق ١٢١



يدرك سرائر الوشائج بين كل لفظ وأخيه ، فلا تشغله الصورة العامة بانطباعها الساحر عن الوقوف لدى كل ملح من ملاحم الوضعية (١) .

ويقول : في قوله تعالى « فاصدح بما تؤمنر » وأعرض عن المشركين (٢) . وهذه استمارة ، لأن الصدح في الحقيقة إنما يصح في الأجسام ، لا في الخطاب والكلام والفرق والصدح والفصل في كلامهم بمعنى واحد . ومن ذلك قولهم المصيب في كلامه قد طبق المفصل ، ويقولون فلان يفصل الخطاب ، أى يصيب حقائقه ؛ ويوضح خواصه ، فكان المعنى في قوله سبحانه « فاصدح بما تؤمنر » أى أظهر القول وبينه في الفرق بين الحق والباطل من قولهم صدح الرداء ، إذا شقه شقا ببنا ظاهرا ، ومن ذلك صدح الزجاجة إذا استطار بها الشق ، واستبان فيها الكسر .

وإنما قال سبحانه « فاصدح بما تؤمنر » ولم يقل فبلغ ما تؤمنر ، لأن الصدح ههنا أعم ظهورا ، وأشد تأثيرا .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك - واقع أعلم - أن بالغ في إظهار أمرك ، والدعاء إلى ربك ، حتى يكون الدين في وضوح الصبح ، لا يشكك نهجه ، ولا يظلم لجه مأخوذاً ذلك من « الصديق » (٣) لشأنه ووضوح إعلانه (٤) .

ويقول في قوله تعالى : « منفرج لكم أيها المنافلون » (٥) .

(١) رابطة العالم الإسلامي د/ محمد رجب البيوي ص ٥٢

(٢) الحجر ٩٤

(٣) الصديق : الصبح ٣١ بذلك لانصداحه عن ظلمات الليل .

(٤) تلخيص البيان ١٨٧

(٥) الرحمن ٣١

وهذه استمارة ، وقد كان والدى الطاهر الاوحد ذو المناقب أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوى رضى الله عنه وأرضاه سألني عن هذه الآية ، في عرض كلام جر ذكرها ، فأجبتني في الحال بأعرف الاجوبة المقولة فيها ، وهو أن يكون المراد بذلك - سنعمدنا بكم ، وتأخذ في جوابكم على مساوىء أعمالكم ، وأنشدته بيت جرير كاشفا عن حقيقة هذا المعنى وهو قوله :  
الآن وقد فرغت إلى غير - فهذا حين إصرت لها عذابا

فقال فرغت إلى غير ، كما يقول عمدت إليها ، فأعلمنا أن معنى فرغت معنا معنى د عمدت ، وقصدت ، ولو كان يريد الفراغ من الشغل لقال فرغت لها ، ولم يقل فرغت إليها .

وقال بعضهم إنما قال سبحانه د سنفرغ لكم ، ولم يقل د سنعمد ، لأنه أراد أن سنفرغ فعل من يفرغ للعمل من غير تمجيع فيه (١) ، ولا اشتغال بغيره ، وكان الفراغ له - في الغالب - هو المتوفر عليه دون غيره ، هاتنا بذلك على المبالغة في الوعيد من الجهة التي هي أعرف عندنا ليقع الزجر بأبلغ الألفاظ ، وأدل الكلام على معنى الایعاد .

وقال بعضهم : أصل الاستمارة موضوع على مدحارة منه ، واستعار له . فالمستعار منه أصل ، وهو أقوى ، والمستعار له فرع وهو أضعف ، وهذا مضطرد في سائر الاستعارات . فإذا تقرر ذلك كان قوله تعالى : د سنفرغ لكم أيها الثقلان من هذا القبيل .

فالمستعار منه معنا ما يجوز فيه الشغل ، وهو أفعال العباد ، والمستعار له ، ما لا يجوز فيه الشغل ، وهو أفعال الله تعالى ؛ والمعنى الجامع لها الوعيد ، إلا أن الوعيد بقول القائل : سأفرغ لعقوبتك ، أقوى من الوعيد بقوله

---

(١) التمجيع : الممازجة ، والممازجة في العمل وعدم أخذه مأخذ الجد .

«سأعاقبك» من قبل أنه كأنما قال سأجحد لمعاقبك كأنه يريد استفراغ قوته في العقوبة له . ثم جاء القرآن على مطرح كلام العرب ، لأن معناه أسبق إلى النفس ، وأظهر للعقل والمراد به تغليظ الرهيد ، والمبالغة في التحذير .

ومثل ذلك قوله تعالى في المدثر «ذرى ومن خلقت وحيداً» ، فالاستعارة منه ههنا ما يجوز فيه المنع ، وهو أفعال العباد ، والمستعاره مالا يجوز فيه المنع ، وهو أفعال القديم سبحانه — كما قلنا أولاً — والمعنى الجامع لهما التخويف والتهديد . والتهديد بقول القائل «ذرى وفلاتا» إذا أراد المبالغة في وعيده — أقوى من قوله خوف فلاتا من عقوبتي ، وحذره من سطوتي . وهذا بين محمد الله تعالى «٢» .

ويقول في قوائمه تعالى : وآية لهم الليل نسلخ منه النهار . فإذا هم مظلمون «٣» .

وهذه استعارة ، والمراد نخرج منه النهار . ونستعفى تخليص أجزائه حتى لا يبقى من ضوء النهار شيء مع ظلمة الليل ، فإذا الناس قد دخلوا في الظلام . وهذا معنى قوله تعالى «فإذا هم مظلمون» . كما يقال أجروا إذا دخلوا في الفجر . وأجبدوا ، وأتهموا إذا دخلوا نجداً ونهامة .

والسلخ لإخراج الشيء عما لا يسه ، والتجهم به ، فشكل واحد من الليل والنهار متصل يصاحبه . إتصال الملايس بأبدانها ، والجلود بحيواناتها ، ففي تخليص أحدهما من الآخر حتى لا يبقى معه ظرف ، ولا عليه منه أثر آفة باهرة ، فسبحان الله رب العالمين «٤» .

١) المدثر ١١ ٢) تأخيص البيان ٣٢٢ ، ٣٢٣

٣) يس ٣٧ ٤) المرجع السابق ٢٧٤

ويقول في قوله تعالى : قال رب إني ومن الظلم مني ، واشتعل الرأس  
شيباً ، ١٥ .

وهذه من الاستعارات المعجية ، والمراد بذلك : العبارة عن تكاثر  
الشيب في الرأس ، حتى يقر بياضه ، وينصل سواده . وفي هذا الكلام  
دليل على سرعة تضاعف الشيب ، وتزايد ، وتلاحق مدده حتى يصير في  
الأسراع والانتشار كاشتعال النار يمجز مطلقه ، ويقلب متلاقه ٢٥ .

ويقول في قوله تعالى : وتركنا بهمضم يومئذ موج في بعض ٣٥ .

وهذه استعارة لأن أصل الموجان من صفات الماء الكثير ، وإنما هو  
سبحانه بذلك عن شدة اختلافهم ، ودخول بهمضم في بعض لكثرة  
أعدادهم تشبيهاً بموج البحر المتلاطم والنفث الدبا المتعاطل ٤٥ .

وفي قوله تعالى : وقدمنا إلى ما عملوا من عمل لئمانا جهنم مثورا ٥٥ .  
يقول : وهذه استعارة ، لأن صفة القدوم لا تصح إلا على من تجوز عليه  
الغية فتجوز منه الآوبة ، والله سبحانه شاهد غير غائب ، وقائم غير زائل .

فالمرنى : وقصدنا إل ما عملوا ، أو عمدنا إلى ما عملوا . وذلك كقول  
القال : قام فلان بفلان في الناس : إذا أظهر ذمه وعيبه ، وليس يريد أنه  
تهبض من قعود ، وتحفز بعد استقرار وسكون ، وإنما يريد أنه قصد إلى  
سبه ، وتظاهر بثلبه . وقال الشاعر :

فإن أباكم تارك ما سألتمو فهما أنيتهم فاقدموه على علم

(١) مريم ٤ ٢٥ ، تلخيص البيان ٢٢٠

٣٥ ، الكهف ٩٩

٤٥ ، الدبا : الجراد الصغير ، أو النمل . والمتعاطل : المتراكب بهضه في

بعض . أنظر : المرجع السابق ٢١٧ (٥) الفرقان ٢٣ .

يقال قدمت هذا الأمر ، وأنا أقدمه ، إذا أتيت وقصدته (١) .

ويقول في قوله تعالى : « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ربنا رب السموات والأرض » (٢) .

وهذه إستعارة لأن الربط هو الهد يقال : ربطت الأمير إذا شددته بالحبل والقيد ، والمراد بذلك شددنا على قلوبهم ، كما تشد الأوعية بالأوعية ، فتتصل على مكنوناتها ، ويؤمن التبدد على ما استودع فيها . أى فشددنا على قلوبهم لئلا تتحلل معاهد صبرها ، وتنفو عزائم جلدتها ، ومن ذلك قول القائل لصاحبه : ربط الله على قلبك بالصبر (٣) .

ويقول في قوله تعالى : « واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » (٤) .

وهذه من محاسن الاستعارة ، وحقيقة الهوى النزول من علو إلى انخفاض كالمحبوط . والمراد به هنا المبالغة في صفة الاقتدة بالنزوح إلى المقيمين بذلك المكان ، ولو قال سبحانه : تمن إليهم ، لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله سبحانه « تهوى إليهم » لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم في مكانه ، والهوى يفيد انزعاج الهاوى من مستقره (٥) .

ويقول في قوله تعالى : « وكم قصمتا من قرية كانت ظالمة » (٦) .

وحقيقة القصم كسر الشيء الصلب ، وجعل هنا مستعاراً للمباردة من أهلاك الجبارين من أهل القرى ، أصلب ما كانوا هيدانا ، وأمنع أركاناً (٧) .

٢٠. الكهف ١٤	٢٤٩. تلخيص البيان
٤٠. إبراهيم ٣٧	٢٠٧. المرجع السابق
٩٠. الأنبياء ١١	(٥) تلخيص البيان ١٨٤
	٧٠. المرجع السابق ٣٢٧

ويقول في قوله تعالى: «فلا تقدموا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره» (١) وهذه استعارة . والمراد بالخوض ههنا متافقه الحديث ، والضرب في أقطاره والتفسيح في أعطائه ، استثارة لكرائمه ، وبجئاً عن غوامضه ، تشبيهاً بخائن الماء الذي يثير قراره ، ويسير غماره (٢) .

ويقول في قوله تعالى: «إذ قال بل سولت لكم أمراً (٣)» . وهذه استعارة ، وحقيقة التسويل ، تزيين الإنسان لغيره أمراً غير جميل جعل سبحانه أنفسهم لما قوى فيها الإقدام على ذلك الأمر المذموم ، بمنزلة الغير الذي يحسن لهم فعل القبيح ، أو يحملهم على ركوب العظيم (٤) .

ويقول في قوله تعالى: «والصبح إذا أسفر» (٥) . وهذه استعارة ، والمراد بها انكشاف الصبح بعد استناره ، أو وضوحه بعد إلتباسه ، تشبيهاً بالزجل المسفر الذي قد حط لثامه ، فظهرت بجالي وجهه ، ومعالم صورته (٦) .

ويقول في قوله تعالى: «إذا رأيتم من مكان بعيد . سمعوا لها نقيقاً وذفيراً» (٧) .

وفي هذه الآية استعارتان : إحداهما : قوله سبحانه : «إذا رأيتم» وهو في وصف نار جهنم ، نمرذ باقة منها ، ولاتصح صفة الرؤية عليها . وإنما المراد - واقع أعلم - إذا كانت منهم بمقدار مسافة لو كان بها من يوصف بالرؤية لأهم . وهذا من لطائف التأويل ، وغرائب التفسير .

(٢) تلخيص البيان ١٢٩

(٤) تلخيص البيان ١٧١

(٦) المرجع السابق ٣٥٤

(١) النماء ١٤٠

(٣) يوسف ١٨

(٥) المدثر ٣٤

(٧) الفرقان ١٢

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : « سمعوا لها تغيظا وزفيرا » .  
وهاتان الصفتان من صفات الحيوان ، ويختص التغيظ بالإنسان لأن التغيظ  
من أعلى منازل الغضب ، والغضب لا يوصف بحقيقته إلا الناس ، والزفير  
قد يشترك في الصفة به الإنسان ، وغير الإنسان .

ولأنما المراد بهاتين الصفتين المبالغة في وصف النار بالاحتياج والاضطراب  
على عادة المغيظ الغضبان (١) .

وفي قوله تعالى : « إذا ألغوا فيها سمعوا لها شيقا وهي تفور تكاد تميز  
من الغيظ (٢) » . يقول : وفي هذا الكلام استعارتان إحداهما : قوله سبحانه :  
« سمعوا لها شيقا وهي تفور » ، والشيق الصوت الخارج من الخوف ،  
عذو تضيق القلب من الحزن الشديد . والكند انطويل ، وهو صوت مكروه  
السبح ، فكأنه سبحانه وصف النار بأن لها أصواتاً مقطعة تهول من سمعها  
ويصعق من قرب منها .

والاستعارة الأخرى : قوله سبحانه : « تكاد تميز من الغيظ » ، من قولهم  
تغيظت القدر إذا اشتد غليانها ، ثم صارت الصفة به مخصوصة بالإنسان  
المغضب فكأنه سبحانه وصف النار - نعوذ بالله منها - بصفة المغيظ الغضبان  
الذي من شأنه إذا بلغ ذلك الحد أن يبالغ في الانتقام ، ويتجاوز الغايات  
في الإيقاع والإيلام وقد جرت عادتهم في صفة الإنسان الشديد الغيظ بأن  
يقولوا يكاد فلان يتميز غيظا ، أى تكاد أعصابه المتلاحمة تترايل ، وأخلاقه  
المتجاورة تتنافى وتباعد من شدة احتياج غيظه ، واحتدام طبعه ، فأجرى  
سبحانه هذه الصفة - التي هي أبلغ صفات الغضبان على قار جهنم ، لما وصفه  
بالغيظ ، ليسكون التثني في أقصى منازل وأعلى مراتب (٣) .

(٢) الملك ٧ ، ٨

(١) المرجع السابق ٢٤٨

(٣) تلخيص البيان ٣٣٩ ، ٣٤٠

ويقول في قوله تعالى : « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (١) » .

وهذه استعارة لأن المراد ههنا بيهتان الأرض - والله أعلم - تشبيهاً بالحيوان الذي همد بعد حراكه ، وخشع بعد تطلعه وإشرافه لعله طرأت عليه ، فأحارته إلى ذلك ثم أفاق من تلك الغمرة ، وسحا من تلك السكره فتحرك بعد هموده ، واستب بعد ركوده ، وكذلك حال الأرض ، إذا أماتها الجذب ، وأهدمها الخلل ، ثم حالها إذا نهضها الفيث بسجاله ، وبها القطر بيلاله ، واهتزت بالنبات فاضرة ، ورطبت بعد الجفوف متزيلة. ذلك تقدير العزيز العليم (٢) .

وفي قوله تعالى تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً (٣) » يقول : « وهذه استعارة . ومناسبا تمسكوا بأمر الله لكم ، وعنده إليكم ، والحبال : اليهود في كلام العرب وإنما سميت بذلك لأن المتعلق بها يتجوعا بخافه كالمثبث بالحبل إذا وقع في غمرة أو ارتكس : في هوة اليهود يستأن بها من المخاوف والحبال يستأن بها من المتناف فلذلك وقع التشابه بينهما (٤) » .

وفي قوله تعالى : « في قلوبهم مرض . فزادهم الله مرضاً (٥) » . يقول : والمرض في الأجسام حقيقة وفي القلوب استعارة لأنه فساد في القلوب كما أنه فساد في الحقيقة وإن اختلفت جهة الفساد في الموضعين (٦) » .

(٢) المرجع السابق ٣٢٦  
(٤) تلخيص البيان ١٢٤  
(٦) المرجع السابق ١١٣

(١) الحج •  
(٣) آل عمران ١٠٣  
(٥) البقرة الآية ١٠



ويقول في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا العزلة بالهدى . فارجع  
تجارهم وما كانوا مهتدين (١) » .

وهذه استعارة والمعنى أنهم استبدلوا النهى بالرشاد والكفر بالإيمان  
نحسرتهم صفقتهم ولم ترج تجارتهم . ولما أطلق سبحانه على أعمالهم اسم  
التجارة لما جاء في أول الكلام بلفظ الثرى تأليفاً لجواهر النظام وملاحظة  
بين أعضاء الكلام (٢) .

وفي قوله تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق  
ولكم الويل لما تصفون (٣) » يقول :

وهذه استعارة لأن حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة التي  
يرجم بها كالحجارة وغيرها . فجعل سبحانه إيراد الحق على الباطل بمنزلة  
الحجر الثقيل الذي يرض ماصكه ويدفع مائه . ولما بدأ تعالى بذكر  
قذف الحق على الباطل وفي الاستعارة حقها وأعطاهما واجبها فقال  
سبحانه : « فيدفعه » ولم يقل فيذهب . وبطله لأن الدفع إنما يكون عن وقوع  
الأشياء النقال وعلى طريق الغلبة والاستعلاء . فكأن الحق أصاب دماغ  
الباطل فأهلكه والدماغ مقل . ولذلك قال سبحانه من بعد : « فإذا هو  
زاهق » . والزاهق المهلك (٤) .

ويقول في قوله تعالى : « واحلل دقده من لسانه فقهوا قولى (٥) » .  
وهذه استعارة . والمراد بها إزالة لغف (٦) كان في لسانه فغير عنه

(١) البقرة الآية ١٦ (٢) تلخيص البيان ١١٤

(٣) الأنبياء ١٨ (٤) المرجع السابق ٢٢٨

(٥) طه ٢٧

(٦) اللغف : لثراء عصب في اللسان يعطله عن الكلام .

بالمقدمة وغير عن مسألة إزالته بحل المقدمة ملائمة بين النظام ومناسبة بين الكلام (١) .

وفي قوله تعالى: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمنةً مطمئنةً يأمنُ بها رزقها وغداؤها من كل مكان . فَنُكِفْتُهَا بِالْغُلَامِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْتَمُونَ (٢) » .

يقول : وهذه استعارة لأن حقيقة الذوق إنما تكون في المطاعم والمنازل لا في الكفى والملايس . وإنما خرج هذا الكلام مخرج الخبر عن العقاب النازل بهم والبلاء الشامل لهم وقد عرف في لسانهم أن يقولوا لمن عوقب على جريمة أو أخذ بجريرة: ذق غب فعنك واجن ثمرة جهلك وإن كان عقوبته ليست بما يحس بالطعم ويدرك بالذوق فكأنه سبحانه لما شملهم بالجوع والخوف على وجه التقوية حسن أن يقول تعالى: فأذاقهم ذلك أي أوجد لهم مرارته كما يجد الذائق مرارة النىء المرير ووخامة الطعم الكره .

ولأنما قال سبحانه «لباس الجوع» ولم يقل طعم الجوع والخوف لأن المراد بذلك - واقع أهل - وصف تلك الحال بالشمول لهم والاشتغال عليهم كاشتغال الملايس على الجلود لأن ما يظهر منهم عن مضيض الجوع وآلئهم الخوف من سوء الأحوال وشحوب الألوان وضئولة الأجسام كالبأس الشامل لهم والظاهر عليهم (٣) .

ويقول في قوله تعالى : «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه .

(١) تلخيص البيان ١١٤

(٢) النحل ١١٢

(٣) المرجع السابق ١٩٦

وفي آذانهم وقرا، (١) وهذه استعارة لأنه ليس هناك على الحقيقة كنان على قلب، ولا وقر في صبح، وإنما المراد أنهم لاستيقظهم صبح القرآن هتد أمر الله سبحانه نبيه عليه السلام بتلاوته على أسماعهم، وإفراغه في آذانهم كالذين على قلوبهم أكنة دون فهمه، وفي آذانهم وقرون فهمه، وإن كانوا من قبل نفوسهم أنوا، وبسوء اختيارهم أخذوا، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أخذوا على أطراحه، ولما ذروا بالاضراب عن استماعه (٢).

وفي قوله تعالى: فنبذوه وراء ظهورهم، (٣). يقول: وهذه استعارة والمراد بها أنهم غفلوا عن ذكره، وتشاغلوا عن فهمه، يعني الكتاب المنزل عليهم، فكان كالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان، لا يراه فيذكره، ولا يلتفت إليه فينظره (٤).

ويقول في قوله تعالى: أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، (٥). وهذه استعارة، والمراد بها الرجوع عن دينه، والتفاسد اتباع طريقه، فعبه سبحانه الرجوع في الارتباب بالرجوع على الأعقاب (٦).

وفي قوله تعالى: وكنتم على شفا حفرة من النار. فأنقذكم منها، (٧). يقول: وهذه استعارة لأنه تعالى شبه المشقى بسوء عمله على دخول النار بالمشقى لئلا قدمه على الوقوع في النار (٨).

ويقول في قوله تعالى: ومن الناس من يبد الله على حرف. فإن أصابه خير اطمأن به. وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، (٩).

(١) الامراء ٤٦	(٢) تلخيص البيان ٢٠١
(٣) آل عمران ١٨٧	(٤) المرجع السابق ١٢٦
(٥) آل عمران ١٤٤	(٦) تلخيص البيان ١٢٥
(٧) آل عمران ١٠٣	(٨) المرجع السابق ١٢٤
(٩) الحج ١١	

وهذه استمارة ، والمراد بها — والله أعلم — صفة الانسان المضطرب  
الدين ، الضعيف اليقين الذي لم تثبت في الحق قدمه ، ولا استمرت عليه  
مريرته ، فأرعى شبهة تعرض له ينقاد معها ، ويفارق دينه لها ، تشبها  
بالقائم على حرف مبراة ، فأهني عارض برافعة ، وأضعف دافع بطرحه (١) .

وفي قوله تعالى : « أفن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان  
خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار . فانهار به في نار جهنم » (٢) .

يقول : وهذه استمارة ، والمراد بها ذكر ما بناء المنافقون من مسجد  
الضرار (٣) .

بعد ما بين المؤمنين من المسجد المعروف بمسجد قباء (٤) .

لأن المؤمنين وضعوا هذا البناء وهم مؤمنون متقون عارفون بموتهم ،  
فكانما وضعوه على قواعد من الايمان ، وأساس من الرضوان .

(١) تلخيص البيان ٢٣٧

(٢) التوبة ١٠٩

(٣) مسجد الضرار : هو المسجد الذي بناءه المنافقون لاضرار المسلمين ،  
وتفريق كلمتهم ، وقد سألوا النبي عند رجوعه من تبوك أن يأتي مسجدهم هذا  
ليصلي فيه ، فأذن الله فيه قوله تعالى : « الذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا  
وتفريقا بين المؤمنين ، وأرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن  
إن أردنا إلا الحزن . والله يشهد انهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا . » وقد  
أمر النبي عليه السلام بهدم هذا المسجد الظالم أهله ، لحرق وهدم واتخذ  
موضع مكاثا للقائمة .

(٤) مسجد قباء هو المسجد الذي أسسه النبي على التقوى من أول يوم  
نزل فيه قباء وهي بلدة على بعد ميلين من جنوب المدينة .

والمناققون انما وضعوا ذلك البناء كيذا المؤمنين ، وارصادا للمسلمين  
مكاثمهم وضعوه على شفا جرف هار متقوض ، وأساس واه فتقوض ،  
فكأنما انهار بهم في نار جهنم ، اى أسقطهم ذلك الفعل في عذاب النار ،  
ودائم العقاب ، وهذه من أحسن الاستعارات (١) .

المجاز المرسل :

يقول في قوله تعالى : « واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولي  
الأيدي والأبصار (١) » .

والمراد - والله أعلم - أولى القوة في العبادة والبصائر في الطاعة ،  
ولا يجوز أن يكون المراد بالأبصار ههنا الجوارح والحواس لأن سائر  
الناس يشاركون الأنبياء عليهم السلام في خلق ذلك لهم ، ولا يحسن مدح  
الإنسان بأن له يدا وقدماء ، وعيناً وذا ، وإنما يحسن أن يمدح بأن له نفساً  
شريفة وهمة منيفة ، وأفعالا جميلة ، وخلالا محمودة .

وقيل أيضاً معنى أولى الأيدي ، أى أولى النعم في الدين ، لأن ورود  
اليد بمعنى النعمة مشهور في كلامهم ، فإنهم أسدوا الى الناس أيدياً ، بدعائهم  
الى الإيمان ، وافتلأنهم من حياثل الضلال (٢) .

وفي قوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه . فأعرض عنها  
ونسى ما قدمت يده (٣) » .

(١) تلخيص البيان ١٤٩ .

(١) ص ٤٥

(٢) تلخيص البيان ٢٨١

(٣) الكهف ٥٧

يقول : المراد بذكر اليدين ههنا ما كسبه الإنسان من العمل الذي يجزى العقاب ، ويوجب النكال ، ومثله في القرآن كثير ، كقوله سبحانه : ذلك بما قدمتم أيديكم ، وذلك على طريقة للعرب معروفة ، وهو أن يقولوا للجاني المماقب : هذا ما جنت يداك ، وهذا ما كسبت يداك ، وإن لم تكن جنايته عملاً بيد ، بل كانت قولاً بفم ، لأن الغالب على أفعال الفاعلين أن يفعلوها بأيديهم فحمل الأمر عن الاعرف ، وخرج على الأكثر ، وإن لم يقع ذلك في كل حال ، وإنما الحكم للأظهر والقول على الأكثر (١) .

وفي قوله تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . وقد رأيتموه وأنتم تنظرون » (٢)

يقول : إن الموت لا يلقى ولا يرى ، وإنما أراد سبحانه رؤية أسبابه من صدق مصاع (٣) ، وتتابع قراخ ، أو رؤية آلائه كالرماح المشرعة ، والسيوف المخترطة (٤)

ويقول في قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » (٥) .  
لأنما أراد سبحانه قطع يمين السارق ويمين السارقة ، وذلك مشهور في اللغة (٦)

وفي قوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » (٧) يقول :  
العرب تقيم العنق والرقبة مقام الإنسان نفسه ، فيقولون لي في رقبة فلان

- |  |                      |
|--|----------------------|
| (١) تلخيص البيان ٢١٥                   | (٢) آل عمران ١٤٣     |
| (٣) المصاع : مصدر ما صاع أى قاتل وجماد |                      |
| (٤) تلخيص البيان ١٢٥                   | (٥) المائدة الآية ٣٨ |
| (٦) تلخيص البيان ٣٣٧                   | (٧) الاسراء ١٣       |

دم . وفي في رقبته دين أى عنده ، وفلان اعتق رقبة إذا اعتق عبداً أو أمة ، ويقول الداعى في دعائه اللهم اعتق رقبتي من النار ، وليس يريد العنق المخصوصة وإنما يريد الذات والجملة (١)

ويقول في قوله تعالى : ووهبنا له من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا ، (٢)

المراد بذكر اللسان ههنا — والله أعلم — الثناء الجليل الباقي في أعقابهم والخالف في آباؤهم . والعرب تقول : جاءني لسان فلان يريدون مدحه أو ذمه ولما كان مصدر المدح والذم عن اللسان هبروا عنها باسم اللسان (٣)

وفي قوله سبحانه : لسان الذي يلحدون إليه أجنبي . وهذا لسان عرب مبين (٤) .

يقول : إن المراد باللسان ههنا جملة القرآن وطريقته لا المعنى المخصوص الذي يقع الكلام به ، وذلك كما يقول العرب في القصيدة هذه لسان فلان أى قوله . قال شاعرهم :

لسان السوء تهدينا لإيئنا وخنثى وما حسبتك أن تخوننا  
أى مقالة السوء . ومثل ذلك قول الآخر :

ندمت على لسان كان منى ودعت بأنه في جوف عكم (٥)

أى على قول سبق منى ، لأن الندم إنما يكون على الفعل والكلام ،

(١) المرجع السابق ١٩٩ (٢) مريم ٥٠  
(٣) تلخيص البيان ٢٢٠ (٤) النحل ١٠٣  
(٥) العكم بكسر العين : العذل الذى توضع فيه الأشياء .

لاهل الأعداء والأحياء . ولأنما هي القول لسانا لأن إنما يكون باللسان  
ويصدر عن اللسان (١) .

ويقوله في قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند  
ربهم » (٢) .

المراد بالقدم هنا : السابقة في الإيمان ، والتقدم في الإخلاص .  
والعبارة عن ذلك بلفظ القدم غاية في البلاغة ، لأن بالتقدم يكون  
السبق والتقدم فسميت قدما لذلك ، وإن كان التأخر أيضا يكون بها ، كما  
يكون التقدم بلفظها فإنما سميت بأشرف حالاتها ، وأنه متصرفاتها (٣) .  
وفي قوله تعالى : « وأسأل القرية التي كنا فيها ، والميراثي أقبلنا فيها » (٤) .  
يقول : المراد : وأسأل أهل القرية التي كنا فيها ، وأصحاب الميراث  
أقبلنا فيها ، وما يكشف عن ذلك قوله تعالى في السورة التي يذكر فيها الأنبياء  
عليهم السلام « وبعثنا من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم  
سوء فاسقين » (٥) والقرية هي الأبنية المفروشة والحطاط المسكونة ، لا يصح  
منها عمل الخبائث ، فدل أن المراد بذلك أهلها (٦) :

ويقوله في قوله تعالى : « واصلع الفلك بأعيننا ووحينا » (٧) .  
والمعنى : واصلع الفلك بأمرنا . ونحن نرعاك ونحفظك . ليس أنه هناك  
هنا نلاحظ ، ولا لسانا يلفظ ، وذلك كما يقول القائل : أنا بعين الله ، أي  
يمكن من حفظ الله ، ومن كلامهم الطاعن المشيع ، والجم المودع محبتك  
هين الله ، أي رعاية الله وحفظه (٨) .

(١) تلخيص البيان ١٩٥	(٢) يونس ٢
(٣) المرجع السابق ١٥٣	(٤) يوسف ١٧٣
(٥) الانبياء ٧٤	(٦) تلخيص البيان ١٧٣
(٧) الاعراف ٣٧	(٨) تلخيص البيان ١٦١



#### المجاز العقلي د

يقول في قوله تعالى : « رب انهن اضللن كثيرا من الناس » (١) .  
أضاف تعالى ضلال القوم إلى الاضنام ، إذ جعلوها سببا لضلالهم ،  
وهي جماد لا يكون منها صرف عن طاعة ، ولا دعاء إلى معصية .  
ومثل هذا من كلامهم إن الرجل يشغف بالمرأة ، فإذا أعظم وجودها بها  
وقلقه من أجلها قال لها : قد أسهرت ليلي ، وأمرضت قلبي ، وكدرت صفاء  
عيني ، وأعلم لم تعلم بشيء من أمره ، ولم تشعر بأوقات قلقه وسهره ، ولكنه  
لها اعتقد أنها سبب ذلك .

وإن لم تفعله جاز أن ينسب إليها فعله ، وأكد من ذلك ، أنها لو شعرت  
بما يقاسيه فيها ، وبعائيه من حبها ، وكانت ذات عفة تحصنها ، وتحسم المطامع  
عنها ، فزجرته عن نفسها ، وخوفته عواقب الاشتغال بها ، فكان ذلك  
سببا لزيادة كفه بها ، وتضايف شغفه ، فأنحلت قوى أمره . واسترخى  
وترصيره . وطال بها سهر ليله . وتشاغل عن مصالح نفسه كان جازا أن  
ينسب ذلك إليها فيقول : إنما أسهرت ليلي . وأطالبت فكري وانتعلمتني  
من مصالحى ، وذهبت بي عن مرادى . وهي لم تنطه إلا ليعتظ ، ولم  
تزجره إلا ليزدجر . وإذ أحسن منه أن ينسب جميع ما ذكرنا إليها . لها  
اعتقد أنها سببه . ومن أجاها كان همه ونالقه (٢)

وفي قوله تعالى : فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة (٣) :

(١) إبراهيم ٣٦ .

(٢) حقائق التأويل في مقابله التنزيل ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) مريم ٢٣ .

يقول : المعنى جاء بها الخفاض ، أو ألجأها الخفاض إلى جذع النخلة .  
لنجد له اسناداً لها ، أو عماداً لظورها ، وهي التي لجأت إلى النخلة ، ولكن  
ضرب الخفاض لما كان سبباً لذلك ، حسن أن ينسب الفعل إليه في إلجائها ،  
والجى - بها (١) .

ويقول في قوله تعالى : ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يا كان ما قدمتم  
لهن إلا قليلاً عما تحصنن ، (٢) .

وقال بعضهم : إنما نسب تعالى الأكل إليهن ، لأن الناس يا كان فيهن  
ما ادخره ، ويستنفذن ما أعدوه ، كما يقال يوم آمن ، وليل خائف ، أى  
يأمن الناس في هذا ، ويخافون في هذا (٣) .

وفي قوله تعالى : والليل إذا سجي ، (٤) يقول : ومعنى سجي ، أى  
سكن ، والليل لا يسكن ، وإنما تسكن حركات الناس فيه ، فأجرى سبحانه  
صفة السكون عليه ، لما كان السكون واقفاً فيه (٥) .

ويقول في قوله تعالى : وقال الذين استعصموا الذين استكبروا . بل  
مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً ، (٦) .

والمراد بمكر الليل والنهار ، ما يتوقع من مكرم في الليل والنهار ،  
فأضاف تعالى المكر إليهما لوقوعه فيهما ، وفيه أيضاً زيادة فائدة ، وهي  
دلالة الكلام على أن مكرم كان متصلاً به منقطع (٧) .

#### (١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ٢٢٠

(٢) يوسف ٤٨	(٣) المرجع السابق ١٧٢
(٤) الضحى ٩ ، ٢	(٥) تلخيص البيان ٣٦٧
(٦) سبأ ٣٢	(٧) المرجع السابق ٢٦٧

وفي قوله تعالى : « والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حاجتهم » احضرة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد (١) يقول : « احضرة هنا بمعنى مدحوضه ، وإذا نسب الفعل إليها في الدحوض كان أبلغ في ضعف سنادها ، ورواء عمادها ، فكأنها هي المبطلة لنفسها من غير مبطّل أبلغها لظهور أعلام الكذب فيها ، وقيام شواهد انتافت عليها (٢) .

ويقول في قوله تعالى : « خلق من ماء دافق » (٣) وحقيقة هذا الماء مدفوق لا دافق ، واسكنه خرج على مثل قولهم سر كاتم ، وليل نائم (٤) .

وفي قوله تعالى « فهو عيشة راضية » (٥) يقول : وكان الوجه أن يقال في عيشة مريحة ، ولكن المعنى خرج على مخرج قولهم : شعر شاعر ، وليل ساهر ، إذا شعر في ذلك الشعر ، وسهر في ذلك الليل ، فكأنهما وصفا بما يكون فيهما لا بما يكون منهما ، فبان أن تلك العيشة لما كانت بحيث يرضى الإنسان فيها حاله ، جاز أن توصف هي بالرضا ، فيقال : راضية على المعنى الذي أشرنا إليه (٦) .

ويقول في قوله تعالى : « فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » (٧) .

إن العزم لا يوصف بحقيقته إلا الإنسان المميز الذي يوطن النفس على فعل الأمر قبل وقته اعتداً بالمشيئة على فعله ، فيصح أن يسمى هازماً عليه ، وإنما قال تعالى « عزم الأمر » مجازاً ، أي قويت العزم على فعله ، فصار

(١) الشورى ١٦	(٢) تلخيص البيان ٢٩٧
(٣) الطارق ٦	(٤) تلخيص البيان ٣٦٣
(٥) الجاثية ٢١	(٦) المرجع السابق ٣٤٤
(٧) محمد ٢١	

كالعازم في نفسه (١) .

#### الكناية :

يقول الشريف في قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق . ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » (٢) .

والمراد الكناية عن هول الأمر وشدته ، وعظم الخطب ونطاقته ، لأن من عادة الناس أن يسمروا عن سوتهم عند الأمور الصعبة التي يحتاج فيها إلى الممارسة ، ويفزع عندها إلى الدفاع والممانعة ، فيكون قصمه الذبول عند ذلك أمكن للفراع ، وأصدق المصاع . وقد جاء في أشعارهم ذكر ذلك في غير موضع . قال قيس بن زهير بن جذيمة العبسي :

فإن شمرت لك عن ساقها فوجها ربيع فلا قسام  
وقال الآخر :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت بهم الحرب فجذوا (٣)

وله قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتعند ملوما محسورا » (٤) يقول : ليس المראה اليد التي هي الجارحة على الحقيقة ، وإنما الأول كناية عن التفتير . والكلام الآخر كناية عن التنبذ ، وكلاما مذهبوم حتى يقف كل منهما عند حده ، ولا يجري إلا إلى أمدده وقد فسر هذا قوله سبحانه « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » (٥) .

- |                      |                |
|----------------------|----------------|
| (١) تلخيص البيان ٣٠٨ | (٢) القلم ٤٢   |
| (٣) تلخيص البيان ٣٤١ | (٤) الاسراء ٢٩ |
| (٥) الفرقان ٦٧       |                |

ويقول في قوله تعالى : «ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم» ، ومن تحت أرجلهم» (١) .

والمراد بهذا القول العبارة عن سعة الرزق ، ورعاية العيش كما يقول الفائل : فلان مغرور في النعيم ، والنزعة من قرنه لار قدمه (٢) .

وفي قوله تعالى : «قل متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى» (٣) . يقول : والمراد تخسيس قدر ما يصحب الإنسان من الدنيا ، وأن المتعة به قليلة والشوائب كثيرة (٤) .

ويقول في قوله تعالى : «فلا تقيم لهم يوم القيامة وزنا» (٥) . يجوز أن يكون معنى ذلك أنهم لا يعتد بهم ، ولا نباهة اذكرهم في يوم القيامة ، كما يقال في التحقير لشيء هذا لا وزن له ، ولا قيمة ، وكما تقول : فلان عندي بالميزان الراجح إذا كان كريما عليك ، أو حيبا إليك (٦) .

وفي قوله تعالى : «ضرب الله مثلا الذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين» (٧) يقول :

لأن وصف المرأة بأنها تحب الرجل ليس يراد به حقيقة الفوق والتحصن وإنما المراد أن منزلة المرأة منخفضة عن منزلة الرجل لقيامه عليها وطلبته على أمرها ، كما قال سبحانه : الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على

(١) المائدة الآية ٦٦	(٢) تلخيص البيان ١٣٤
(٣) آل عمران ٧٧	(٤) تلخيص البيان ١٢٨
(٥) الكهف ١٠٥	(٦) تلخيص البيان ٢١٨
(٧) المرجع السابق ٢١٩	(٨) التحريم ١٠

بعض ، ربما أنفقوا من أموالهم ، (١) وكما يقول الفاضل : فلان الجندي تحت  
يدى فلان الأمير إذا كان من شجته عمله ، أو متمرفاً على أمره ، وكما يقول  
الآخر لا آخذ رزقي من تحت يدى فلان إذا كان هو الذى إلى إطلاق رزقه ،  
وتوفيه مستحقة وذلك مشهور فى كلامهم (٢) .

ويقول فى قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » (٣) .

إن حقيقة الاستواء ، إنما يوصف بها الأجسام التى تدور البساط ، وتميل  
وتعتدل ، والمراد بالاستواء هنا الاستيلاء بالقدرة والسلطان ، لا بحلول  
القرار والمكان . كما يقال : استوى (٤) فلان الملك على سرير ملكه ، بمعنى  
استولى على تدبير الملك ، وملك مقعد الأمر والنهى ، وحسن صفته بذلك ،  
وإن لم يكن له فى الحقيقة سرير يقعد عليه ، ولا مكان عال يشار إليه ،  
ولما المراد نفاذ أمره فى ملكته ، واستيلاء سلطانه على رعيته .

فإن قيل فاقه سبحانه مستول على كل شئ بقدره وغلبته ونفاذ أمره  
وقدرته ، فما معنى اختصاص العرش بالذكر هنا ؟ قيل — كما ثبت — أنه  
تعالى رب لكل شئ ، وقد قال فى صفة نفسه ، رب العرش العظيم (٥) .

فإن قيل فما معنى قولنا « عرش الله » ، إن لم يرد بذلك كونه عليه قيل كما  
يقال : بيت الله ، وإن لم يكن فيه ، والعرش فى السماء تطوف به الملائكة  
تعبداً ، كما أن البيت فى الأرض تطوف به الخلائق تعبداً (٦) .

- |                 |  |
|-----------------|--|
| (١) النساء ٣٤   | (٢) المرجع السابق ٣٢٨                        |
| (٣) يونس ٣      | (٤) ومنه قول الراجز                          |
| (٥) المؤمنون ٨٦ | قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مبراق |
|                 | (٦) تلخيص البيان ١٥٤                         |

وفي قول تعالى : «وأيابك فطير» (١) . يقول : أياب ههنا كناية عن النفس أو عن الأفعال والأعمال الراجعة إلى النفس .

قال الشاعر :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخى ثقة إزارى

قبل أراد فدى لك نفسى . وكذلك قول الفرزدق :

سكنت جروتها (٢) وقلت لها أصبرى

وشددت في ضيق المقام إزارى

أى شددت نفسى ، وضممت قلبى والإزار والأياب يتقارب معناهما .  
وعلى هذا فمروا قول امرئ القيس :

• فسل ثياب من ثيابك تفصل (٣)

أى نفسى من نفسك أو قلبى من قلبك .

ويقولون : فلان طاهر أياب ، أى طاهر النفس ، أو طاهر الأفعال .  
فكأنه سبحانه قال : ونفسك فطير ، أو وأعمالك فطير (٤) .

---

(١) المدثر ٤

(٢) في ديوانه : فضربت جروتها وقلت لها أصبرى - وضرب الجرونة كناية عن العزم والتصميم .

(٣) البيت بكامله هو :

وإن تك قد ساءلك منى خليقة

فسل ثياب من ثيابك تفصل

(٤) تلخيص البيان ٣٥٣

البديع :

يقول الشريف في قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله . والله خير الماكرين » (١) إن حقيقة المكر لا تهوؤ عليه تعالى . والمراد بذلك إزال المقوبة بم جزاء على مكرم ، وإنما هي الجزاء على المكر مكرا للمقابلة بين الألفاظ على عادة العرب في ذلك قد استعارها لسانهم ، واستعادها بيلانهم (٢) .

وفي قوله تعالى حاكيا من المسيح عليه السلام : « تعلم ما في نفس ، ولا أعلم ما في نفسك » (٣) إن تقديم سبحانه لا نفس له . والمراد تعلم ما عندى . ولا أعلم ما عندك . وتعلم حقيقتي ، ولا أعلم حقيقةك ، أو تعلم مخبي ، ولا أعلم مخبيك . فكان غوى الكلام تعلم ما أعلم ، ولا أعلم ما تعلم (٤) .

ويقول في قوله تعالى : « توبخ الليل في النهار ، وتوبخ النهار في الليل » (٥) وهي عبارة عجيبة عن إدخال هذا على هذا ، وهذا على هذا . والمعنى أن ما ينقصه من النهار يزيده في الليل ، وما ينقصه من الليل يزيده في النهار . ونلفظ الأيلاج هنا أبلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطف المازحة وشديد الملازمة (٦) .

وفي قوله تعالى : « كلنا الجنةين أنت أكلها . ولم تظلم منه شيئا » (٧)

(٢) تلخيص البيان ١١٣

(٤) تلخيص البيان ٣٥

(٦) تلخيص البيان ١١٣

(١) آل عمران ٥٤

(٣) المائدة الآية ١٦

(٥) آل عمران ٣٧

(٧) الكهف ٢٣



يقول : والمراد بقوله تعالى : « ولم تظلم منه شيئا » أى لم تمنع منه شيئا ، وإنما حسن أن يهر من هذا المعنى باسم الظلم من حيث كان ثمر تلك الجنة التى هى البستان كما استحق لما أكلها ، فإذا أخذ حقه على كاله وتماهى حسن أن يقال : لأنها لم تظلم منه شيئا ، أى لم تمنع منه شيئا ، أى لم تمنع منه ثمارها وما يقوى ذلك قوله سبحانه : « أقم أكلها » أى أعطى أكلها ، فكما جاء بلفظ الاعطاء حسن أن يحى بلفظ الظلم . ومعناه همنا المنع فكأنه تعالى قال : « أعطى ما استحق عاها » ولم تمنع منه شيئا ، (١) .

ويقول فى قوله تعالى : « يكاد ذيتها يضىء ولو لم تمسه نار » (٢) . وهذه مبالغة فى وصف الزيت بالصفاء والخلابة ، حتى يقارب أن يضىء من غير أن يتصل بنار ، ويناط بذلك (٣) .

#### جمال النظم القرآنى :

يقول الشريف : « ومن غرائب القرآن ، وبدائمه ، وعجائبه وغوامضه قوله سبحانه : « إن الله يهرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم » (٤) .

فذكر على المعنى الذى ذكرناه ، لأنه سبحانه لو قال : « اسمه المسيح » لابس اللفظ إذ لم يتقدم من ذكر اسم المسيح عليه السلام ما يؤمن معه الإلباس .

فلما جاء فى السورة التى يذكر فيها النساء ما آمن معه الإلباس أعطى سبحانه الكلمة حقها ، ووفاهما قسطها ، فأنت ضيهرها ، لأن ذكر المسيح عليه السلام قد تقدم فأمن اللبس ، وارتفع الشك . قال سبحانه : « إنما المسيح

(١) تلخيص البيان ٢١٤

(٢) تلخيص البيان ٢٤٥

(٣) النور ٣٥

(٤) آل عمران ٤٥

هيسى بن مريم رسول الله ، وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه ، (١) .  
فقال ألقاها ، ولم يقل د ألقاء ، لما تقدمت أسماء المسيح وتسمياته التي تؤمن  
من الإلهاس ، وهى المسيح وهيسى بن مريم .

ولذا نظرت بعين عقلك بأن لك ما بين الموضهين من التمييز البين والفرق  
النير ، وعجبت من عمائق قس هذا الكتّاب الذى لا يدرك غورها ولا يضرب  
بحرها . فإنه كما وصفه سبحانه بقوله د لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من  
خلفه ، (٤) .

ومن أحسن ما قيل في تفسير ذلك : د إنه لا يشبه كلام تقدمه ،  
ولا يشبه كلام تأخر عنه ، ولا يتصل بما قبله ، ولا يصل به ما بعده ، فهو  
الكلام القائم بنفسه ، البائن من جنسه ، العالى على كل كلام قرن إليه  
وقيس به .

وإنه ليرى فيه عند الانفراد بتلاوته من غرائب الفصاحة وثواب  
البلاغة ، ونوادر الكلم ، ما يعجز الخواطر عن الكلام عايه والانصياح  
من عجائب ما فيه (٣) .

### الزحشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ

تناول « الزحشري » في تفسيره «الكشاف» الكثير من المسائل البلاغية التي تتم عن حله الغريب ، وذوقه السليم ، وحسه المرهف . وإليك بعض ماقاله في بعض القضايا البلاغية :

#### الفصل والوصل :

يقول في قوله تعالى : « الم ذلك الكتاب . لا ريب فيه . هدى للمتقين » (١) ، والذي هو أرسخ صراحة في البلاغة ، أن يضرب عن هذه المحال صفحا ، وأن يقال : إن قوله الم جملة ، برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و « ذلك الكتاب » جملة ثانية ، و « لا ريب فيه » ثالثة و « هدى للمتقين » رابعة .

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن للنظم ، حيث جرى بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق . وذلك لجيئها متأخية ، أخذنا بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى ، معتنقة لها ، وهلم جرا ، إلى الثالثة والرابعة .

بيان ذلك أنه نه أولا على أنه الكلام المقصود به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنصوص بآية السكال ، فكان تقرير الجهة التحدى ، وشدا من أعضاده ثم نفي عنه أن يتشبه به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا بكاله لأنه لا كمال أكمل مما لحق واليقين ، ولا نقص عما لباطل والظبية .

وقيل لبعض العلماء : فيم لذلك ؟ فقال : في حجة تبختر اتصاحا وفي

(١) البقرة ١ ، ٢ .

شبهة تضاد افتضاحاً . ثم ، أحبر عنه بأنه هدى للتقنين ، فقرر بذلك كونه يقينا ، لا يحوم الشك حوله . وحققاً لأبائيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتب هذا الترتيب الآتيق ، ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة (١) .

#### المجاز العقلي :

يقول في قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم » (٢)

ويحوز أن يستعار الاستناد في نفسه من غير الله ، لله ، فيكون الختم مستنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز ، وهو لفهمه حقيقة .

تفسير هذا : أن لفعل ملايسات شئ ، يلبس الفاعل والمفعول به ، والمصدر والزمان والمكان ، والمسبب له ، فإستاده إلى الفاعل حقيقة ، وقد يستند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة (٣) وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملايسة الفعل ، كما يضامى الرجل الأسد في جرأته فيستعار له اسمه ، فيقال في المفعول به عيشة راضية وماء دافق ، وفي عكسه سيل مغمم ، وفي المصدر شمر شاهر ، وذيل ذائل ، وفي الزمان نهاره صائم ، وليس له قائم ، وفي المكان طريق سائر ، ونهر جار ، وأهل مكة يقولون على المقام ، وفي المسبب بنى الأمير المدينة .

فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة ، أو الكافر إلا أن الله سبحانه لما كان

---

(١) الكشف ١ - ١٢٩ ، ١٢٢ ط الخالي ١٩٧٢

(٢) البقرة الآية ٧

(٣) يريد الزختمى بالاستعارة هنا : استعارة الاستناد ما حوله إلى غير ما حوله .

هو الذى أقدره ، وممكنه أسند إليه الحتم كما يستند الفعل إلى السبب (١) .

#### التشبيه والأمثال :

يقول فى قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يعذب مثلاً ما يعوذة فافوقها » (٢) سبقت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجاهل والسفهاء ، وأهل العناد والمراء من الكفار واستغريوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل :

ليس بموضع الاستنكار والاستغراب من قبل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب ، عن الغرض المطلوب ، وإدغام التورم من المشاهد ، فإن كان الممثل له عظماً كان الممثل به مثله ، وإن كان حقيراً كان الممثل به كذلك ، فليس العظم والخفارة فى المضروب به المثل إلا أمراً تستدعيه حال التمثيل له وتستجده إلى نفسها ، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية .

ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلغ كيف تمثل له بالعباء والنور وإلى الباطل لما كان بعد صفته كيف تمثل له بالظلمة .

ولما كانت حال الألهة التى جعلها الكفار أنداداً لله تعالى ، لأحوال أحقر منها وأقل ، ولذلك جعلت العنكبوت مثلاً فى الضعف والوهن . وجعلت أقل من الدباب ، وأخس قدراً ، وضربت لها البعوضة فالذى دونها مثلاً لم يستنكر ولم يستبدع ، ولم يزل للممثل استحي من تمثيلها بالبعوضة ، لأنه مصيب فى تمثيله ، بحق فى قوله ، مائق المثل على قضية مضربه ، معتذبه على مثال ما يحتكه ويستدعيه .

(١) الكشف ١٣ ١٦٠ - ١٦٢

(٢) البقر ٢٦

وليبيان أن المؤمنين الذين عادتهم الانصاف والعمل على العدل والتسوية،  
والتنظر في الأمور بنظر العقل ، إذا سمعوا يمثل هذا التثليل علموا أنه الحق  
الذى لا تمر الشبهة بساحته والصواب الذى لا يرتفع الخطأ حوله، وأن الكفار  
الذين غلبهم الجمل على عقولهم وغص بهم هل يصارهم ، فلا يتفطنون ، ولا  
يلقون أذهانهم ، أو عرفوا أنه الحق . إلا أن حب الرياسة وهو الآفة  
والسادة لا يجعلهم أن ينصفوا ، فإذا سمعوه هاندوا وكابروا وقعدوا عليه  
بالبطلان وقابلوه بالانكار ، وأن ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين ، وأنهم  
الفاسقين في غيهم وضلالهم : والعجب منهم كيف أنكروا ذلك ، وما زال  
الناس يضيئون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناس الأرض والحشرات  
والهوام .

وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسخرة في حواضرهم . ويواديهم قد  
تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا : أجمع من ذرة ، وأجرأ من الذباب ،  
وأصح من فرد ، وأصرده من جراده ، وأضعف من فراشه ، وأكل من  
السوس . وقالوا في البعوضة : أضعف من بعوضة ، وأهن من مخ البعوض .  
وكلفتى من البعوض .

ولقد ضربت الأمثال في الانحياز بالأشياء المحقرة ، كالزوان والنخالة ،  
وحية الخردل ، والحصاة ، والأرضة ، والدود والزناجير ، والتثليل بهذه  
الأشياء بأحقر منها مما لا ينبغي استقامته وصحته على من به مسكة (١) ولكن  
ديدن المحجوج المبهوت الذى لا يبقى له متمسك بدليل ، ولا متشبث بأمانة ،  
ولا إقناع ، أن يرى لفرط الحيرة والجزع أعمال الخيلة يدفع الواضح  
وإنكار المستقيم ، والتحويل على المكابرة والمغالطة ، إذا لم يجد سوى  
ذلك معولا (٢) .

(١) مسكة : بقية .

(٢) الكشف ١٥ - ٢٦٢ - ٢٦٣

ويقول في قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله . وتثبيتا من أنفسهم . كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآنت أكلها ضعفين . فإن لم يصبها وابل فقلل والله بما تعملون بصير » (١) .

والمعنى : ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله « كمثل جنة » وهي البستان « بربوة » بمكان مرتفع . وخصها لأن الشجر فيها أذكى ، وأحسن ثمراً « أصابها وابل » مطر عظيم القطر . « فآنت أكلها » ثمرتها « ضعفين » مثل ما كانت تثمر بسبب الوابل . « فإن لم يصبها وابل فقلل » فطر صخر القطر يكثيها لكرم منبتها .

أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ، وتفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل ومع أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة ، فكذلك تفقتهم كثرة كانت أو قليلة بمد أن يطلب بها وجه الله ، ويذل فيها الوسع زاكية عند الله زائدة في زلفهم « وحسن حالهم عنده » (٢) .

وفي قوله تعالى : « ظلمها كأنه رزق الشياطين » (٣) يقول : شبه برؤوس الشياطين دلالة على تنافيه في الكراهية ، وتبع المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس ، لا اعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير ، فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان . وإذا صوره المصورون جاموا بصورته على أقبح ما يقدر وأموه .

كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه فسيبوه به الصورة الصورة الحسنه قال الله تعالى « ما هذا بشراً . إن هذا إلا ملك كريم » (٤) . وهذا تشبيه تخييلي (٥) .

(٢) الكشف ١٣ - ٣٩٤ - ٣٩٥

(١) البقرة الآية ٢٦٥

(٣) الصافات ٦٥

(٤) يوسف ٣١

(٥) الكشف ٣٨ - ٣٤٢

ويقول في قوله تعالى - في وصف المنافقين : « صم بكم عن فهم لا يرجعون (١) » فإن قلت كيف طريقته عند علماء البيان ؟

قلت : طريقة قولهم : صم ليوت الصنعان ، ويجوز للاستخفاء ، إلا أن هذا في الصفات ، وذاك في الأسماء ، وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً ، تقول : رأيت ليوتاً ولقيت صماً عن الخير ، ودعا الإسلام وأضاء الحق .

فإن قلت : هل يسمى ما في الآية استعارة ؟ قلت : يختلف فيه . والمحققون هل تسميته تشبيهاً بليفاً لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون والاستعارة إنما نطاق حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام غلواً منه لأن يراد به المنقول منه ، والمنقول إليه لولا دلالة الحال ، أو الخوى الكلام (٢) .

#### الاستعارة :

يقول في قوله تعالى : « ولما سكنت عن موسى الغضب . وفي نصبتها هدى ووجهة للذين هم لربهم يرهبون » (٣) .

هذا مثل كأن الغضب كان يقربه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا وألق الألواح ، وجبر رأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء .

ولم يستحسن هذه الكلمة ، ولم يستفصمها كل ذي طبع سليم ، وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شيب البلاغة ، وإلا فاقراءة معاوية

(٢) الكشف - ١ - ٢٠٤

(١) البقرة الآية ١٨

(٣) الأعراف ١٥٤



ابن قرة : ولما سكن عن موسى الغضب ، لانجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفاً من تلك الروعة (١) .

ويقول في قوله تعالى : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » (٢) . فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقص في إبطال العهد ؟ قلت من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ، ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة : « يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً ، ونحن قاطعوها ، فتخفى إن الله عز وجل أعزك ، وأظهرك ، أن ترجع إلى قومك » . وهذا من أسرار البلاغة وإطرائفها ، أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من رواده ، فينبهوا بذلك الرواة على مكانه ، ونحو قولك شجاع يفترس أفرانه ، وعالم يتعرف منه الناس (٣) .

(٢) البقرة الآية ٢٧

(١) الكشاف ٢٠ / ٢

(٣) الكشاف ١٦٨ / ١



تذوق بعض المعاصرين  
للبلغة القرآنية

### مصطفى صادق الرافعي المتوفى سنة ١٩٣٧م

اجتهد الرافعي - رحمه الله - في أن يتذوق جوانب من البلاغة القرآنية لم تكن مأروفة كغيرها ، فهو يجتهد في أن يتذوق مثلاً حروف القرآن في كلماتها وحركاتها وأنغامها ، وأن يتعرف على هذا الجانب ، من عذوبة الآيات في الوقت الذي ينصرف غيره - غالباً - إلى التعرف على تشبيهاته وأمثاله ومجازاته ، على حد ما بينا .

ونعتقد أن منزع الرافعي محتاج إلى دراسة مستقلة تشرحه وتحلله وتربطه بإشارات تعد أصولاً له في تراث السابقين .

ولكننا سوف نكتفي في سياقنا هذا بأن نسمع من فم الرجل نفسه - رحمه الله - درجة إحساسه ، وطبيعة تذوقه لهذه البلاغة القرآنية .

#### نظم القرآن :

يقول الأستاذ مصطفى الرافعي - رحمه الله :

لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها ، لرأيت حركاتها الصرفية والفنية تهرية في الوضع والتركيب يجري الحسروف أنفسها فيما هي له من أمر القصاحة . فهي - بعضها ليعض ، ويساند بعضاً ، وإن تجدها إلا مؤلفة مع أصوات الحروف ، مساوئة لها في النظم الموسيقي ، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها اسبب من أسباب النقل أيها كان فلا تعذب ولا تساغ ، وربما كانت ، أو كس التصديين في حظ الكلام من الحروف والحركة فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبيًا ، ورأيت أصوات الأحرار والحركات التي قبلها قد امتدحت لها طريقًا في اللسان ، واكتفتها بصنوب

من النغم الموسيقى ، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شئ . وأرته ،  
وجاءت متمسكة في موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات  
بالخفة والروعة .

من ذلك لفظة « النذر » جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على  
الثون ولانزال معاً . فضلاً عن جساءة هذا الحرف ونبوه في اللسان ، وخاصة  
إذا جاء فاصلة للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ويوضح عن موضعه  
الثقل فيه .

واكتنه جاء في القرآن على العكس ، وانتقى من طبيعته في قوله تعالى :  
« وأقد أأنذرهم بطعتنا فتماروا بالنذر (١) » .

فتأمل هذا التركيب ، وأنتم ثم أنتم على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف ،  
وأجر حركاتها في حس السمع ، وتأمل مواضع القافلة ، في ذال « لقد »  
وفي الطاء من « بطعتنا » وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى « و »  
« تماروا » مع الفصل بالمد ، كأنها تقبل لحقة التتابع في الفتحات ، إذا هي حرت  
على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستغفراً بعد ، وتكون هذه الضمة  
قد أصابت موضعها ، كما تكون الأحاسير في الأطعمة .

ثم ردد نظرك في الراء من « تماروا » فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء  
« لنذور » حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلاً ، فلا يخوف عليه  
ولا تغلظ ، ولا تقبض فيه . ثم أعجب لهذه الفنة التي سبقت الطاء في نون  
« أنذرهم » وفي « يسها » والفنة الأخرى التي سبقت الذال في « النذر » .

وما من حرف ، أو حركة في الآية ، إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً

في موقعه ، والقصد به ، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة .

وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع ، مما يكون مستقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه ، ولكنها بذلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً ، فكانت من أحسن الالفاظ حلولة ، وأهذبها منطقاً ، وأخفها تركيباً ، إذ تراه قد هيأ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف ، وتنوع الحركات . فلم يمررها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها . كقوله : « ليس تخلفنهم في الأرض (١) » .

فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف ، وقد جاءت هذوبتها من تنوع مخارج الحروف ، ومن نظم حركاتها ، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات إذ تنطبق على أربع مقاطع .

وقوله « نسيكفيكم الله » فإنها كلمة من تسعة أحرف ، وهي ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها .

وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه ، وما حصلت في الكلام قط إلا في موقعها منه ، وهي كلمة « نيزي » (٢) من قوله تعالى : « تلك إذا قسمة نيزي » (٣) ومع ذلك فإن حسناتها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأجمله ، ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ، فإن السورة التي هي منها ، وهي سورة النجم مفصلة كلها على الياء ؛ فجاءت الكلمة قاصلة

(١) النور ٥٥

(٢) يقال : ضاره حقه ، وضامه : أي منعه ونقصه ، فهي تسعة جائرة والنيز : الجور .

(٣) النجم ٢٢

من الفواصل ثم هي في معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت في ذكر الأصنام، وزعمهم في قسمة الأولاد ، فانهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع وأدم البنات (١) .

فقال تعالى : «الكم الذكر ، وله الأنثى ؟» تلك إذا قسمة خيبي ، فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لمرآة هذه القسمة التي أنكرها . وكانت الجملة كما كانت تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى، والتمك في الأخرى ، وكان هذا التصوير أبغى ما في البلاغة ، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتمك في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى ، رجعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بفرايتها اللفظية .

ثم الكلمات التي يظن أنها رائدة في القرآن كما يقول النحاة ، فإن فيه من ذلك أحرفاً . كقوله تعالى : «فيا رحمة من الله لنت لهم» (٢) . وقوله تعالى : «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً» (٣) .

فإن النحاة يقولون إن «ما» في الآية الأولى ، و«أن» في الثانية رائدتان ، أي في الأعراب ، فيظن من لا يبصر له أنهما كذلك في النظم ويقبس عاينه مع أن هذه الزيادة لو تأ من التصوير لو «و حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروحه» .

فإن المراد بالآية الأولى، تصوير ابن النبي ﷺ لقومه ، وإن ذلك رحمة من الله ، فجاء هذا المد في «ما» وصفاً لفظياً ، يؤكد معنى اللين ويفتحه .

(١) أي دفنن على نيد الحياة ، كما كان من عادتهم .

(٢) آل عمران ١٥٩

(٣) يوسف ٩٦

وفوق ذلك ، فإن لمجة النطق به تنحصر بانعطاف وعناية ، لا يبدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظ «رحمة» مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى ، وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه ، وذلك كله طبعى في بلاغة الآية كما ترى .

والمراد بالثانية تصوير الفصل الذى كان بين قيام البشرى بقميص يوسف وبين مجيئه ، إمد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام ، وأن ذلك كأنه كانت منتظرا بقلق واضطراب (١) . تؤكدهما ، وتصف الطرب لمقدمه ، واستقراره بعده هذه الذنون في الكلمة الفاصلة ، وهى ، أن ، في قوله . « أن جاء » .

وعلى هذا يجرى كل ما ظن أنه في القرآن مزيد ، فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها بمخاطبها ، إنما هو نقص يجعل القرآن عنه ، وليس يقول بذلك إلا رجل يمتسك الكلام ويقضى فيه بنير علم ، أو يمل فيه .

فما في القرآن حرف واحد ، إلا ومعه رأى يستحق في البلاغة ، من جهة نظمه ، أو دلالة ، أو وجه اختياره ، بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق ، أو حرف فافر ، أو جملة غير محكمة ، أو شيء مما تنفذ في نقده الصنعة الإنسانية من أى أبواب الكلام إن وسعها منه باب .

ولكنك واجد في الناس من ينقبض ذرعه ، ويقصر به عنه ، ولا يدع مع ذلك أن يقدم على الأمر ، لا يعرف من أين مطلعه ومآتاه ، فيمضى القول على ما خيل ، ويبقى بما احتال ، ولا يمنعه تقصيره من أن يستطيل به ، ولا استطالته من أن يكابر عليها ، ولا مكابرتة من اللجاج فيها . فيخطئ .

---

(١) قال قبل ذلك عن اسان ومقوب : إنى لأجد ريح يوسف ، ولم يكن جهده للبشرى فكان يحس به .



حواب القول إن قال ، ثم يخطئ الثانية في تصوير خطئه إن احتج ،  
ومافى الخطأ جهة ثالثة إلا أن يُعزَّر على الخطأ .

ومما لا يسه طوق لإنسان في نظم الكلام البليغ ، ما يدل على أن نظم  
القرآن مادة واحدة فوق الصنعة ، ومن وراء التفكير ، وكأنها صبيحة على  
الجملة صبا ، أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا بمجموعة ، ولم يستعمل  
منه صيغة المفرد . فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها كلفظ « القلب »  
فإنها لم ترد إلا بمجموعة ، كقوله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لأولى  
الآلبياب » (١) . وقوله : « وايدكر أولوا الآلبياب » (٢) ونحوهما ، ولم تجيء  
فيه مفردة ، بل جاء في مكانها « القلب » وذلك لأن لفظ الباء شديد يجتمع ،  
ولا يفضى إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية . فلما لم يكن ثم فصل  
بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبه بين الرخاوة والشدة . لم تحسن  
اللفظة مهما كانت حركت الاعراب فيها ، نصباً أو رفعاً ، أو جرّاً ، فاسقطها  
من نظمه بته ، على سعة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك  
الوجوه لجاء بها حسنة رائحة . وهذا على أن فيه لفظه « الجب »  
وهو في وزننا ونطقها لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة  
في الجيم المضمومة .

وكذلك لفظه « الكوب » استعملت فيه بمجموعة ، ولم يأت بها مفردة ،  
لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرفقة ، والاكتشاف وحسن  
التناسب كلفظ « أكواب » الذي هو الجمع .

ود الأرجاء لم يستعمل القرآن لفظها إلا بمجموعة ، وترك المفرد ، وهو  
« الرجاء أى الجانب — لفظه ، وأنه لا يسوغ في نظمه كما ترى .

(١) الزمر ٢١

(٢) إبراهيم ٥٢

وعكس ذلك لفظة « الأرض » ، فانها لم ترد فيه إلا مفردة ، فاذا ذكرت السماء مجموعة جى - بها مفردة في كل موضع منه ، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة ، وذهب بها ، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل مفكر سجدة طويلة ، وهي في قوله تعالى : « الله الذي خلق سبع سموات . ومن الأرض مثلهن » (١) . ولم يقل « وسبع أرضين » ، لهذه الجساسة التي تدخل اللفظ ، ويختل بها النظم اختلالا .

وأنت فتأمل - رعاك الله - ذلك الوضع البياني ، واعتبر مواقع النظم ، وانظر هل تتلاحق هذه الأسباب الحقيقية ، أو تنبسط مادتها الفكرية لأحد من الناس ، فيما يتماطاة من الصناعة . أو يتكلفه من القول ، وإن استقصى فيه الذرائع ، وبالغ في الأسباب وأحكم ما قبله وما ورائه ؟ .

ومن الألفاظ لفظة « الأجر » ، وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمة وسائرهما نافر متقلل لا يصلح مع هذا المد في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن ، فلما احتاج إليها طرح لفظها مرادفها وهو « القرمذ » (٢) . وكلاما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما ، ثم أخرج معناها باللفظ عبارة ، وأردفها وأعذبها ، وساقها في بيان مكشوف يفضح الصبح ، وذلك في قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري . فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا » (٣) .

فانظر هل تجد في سر الفصاحة ، وفي روعة الالهجاز أروع ، أو أبدع من هذا ؟ وأي عربي فصيح يسمع مثل هذا النظم ، وهذا التركيب .

(١) الطلاق ١٢

(٢) وهو في العامة « الطوب » ، أي الطين المحرق الذي يبنى به .

(٣) القصص ٣٨

ولا يملك حصه ولا يسوغه حقيقته نفسه ولا يحسن به جنونه ، ولا يقول آمنت  
بأفه ربا ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن معجزة ؟ .

وتأمل كيف عبر عن الأجر بقوله : « فأوقد لي يا هامان على الطين » وانظر  
موقع هذه القلقة التي هي في الدال من قوله ، فأوقد ، وما يتلوها من رقة اللام ،  
فإنها في أثناء النلاوة لما لا يطلق أن يعبر عن حسنه ، وكأنما تنتزع النفس  
للتزاعا .

وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة لحسب ، ولكن ما زرى إليه إعجاز  
آخر ، فإنها تحقر شأننا فرعون ، وتصف ضلاله ، وتسفه رأيه ، إذ طمع  
أن يبلغ الأسباب ، أسباب السموات فيطالع إلى إله موسى ، وهو لا يجد وسيلة  
إلى ذلك المستحيل ، ولو نصب الأرض سلما إلا شبتا يصنعه هامان  
من الطين .

وما يشذ في القرآن حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز ، حتى إنك  
لو تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا يسرده من الأسماء الجامدة ، وهي بالطبع  
مطنة أن لا يكون فيها شيء من دلالة الإعجاز ، فإنك ترى إعجازها أبغ  
ما يكون في نظمها وجهات سردها ومن تقديم اسم على غيره ، أو تأخير عنه  
لتظم حروفه ، ومكانته من النعاق في الجملة ، أو لشكته أخرى من فكت  
المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئا فيها ليس فيه شيء .

تأمل قوله تعالى : « وأرسلنا هارون والطوفان والجراد والقمل والضفادع  
والدم آيات متصلات » (١) .

فإنها خمسة أسماء أخفها في اللفظ « الطوفان والجراد والدم » ، وأثقلها  
« القمل والضفادع » ، فقدم « الطوفان » لمكان المدين فيها ، حتى يأنس اللسان

(١) الأعراف ١٣٣

(٩ - دراسات بلاغية)

يخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك مد ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدأ بأخفهما في اللسان ، وأبدعهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه ، ثم جرى بلاغظة الدم .  
آخر ، وهي أخف الخمسة ، وأقربا حروفا ليسر اللسان فيها ، ويستقيم لها ذوق النظم ، ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب .

وأنت فهما قلبت هذه الأسماء الخمسة ، فانك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع ، فلو قدمت أو أخرت لبادرك التهاافت والتعثر ، ولاعتك أن تجيء منها بنظم فصيح ، ثم لا ريب أحاك ذلك عن قصد الفصاحة ، وقطعت دون غايتها ، ثم لم تخرج الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء ليس يظهر أخفها من ألقاها .

وهذا الذي قدمناه ونحوه بما أمسكنا عنه ، ولم نستقص في أمثله لأنه أمر معطر ، تعرف أن القرآن إنما أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع وإن تستوى هذه الطريقة إلا بكل ما فيه على جهته ووضع ، فكل كلمة منه ما دام في موضعها فهي من بعض أعجازه (١) .

---

(١) انظر أعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٥٧ - ٢٦٧

### د. محمد عبد الله دراز المتوفى سنة ١٩٥٨ م

يعد الشيخ محمد عبد الله دراز - رحمه الله - من علماء الأزهر الشريف الذين يمثلون سلف هذه الأمة، في نفاذ الفهم، وسعة الثقافة، وتمدد أنوار المعارف التي تمثلها. وكونه له عقلية متفردة.

وقد وجه همهته في دراسته القرآنية نحو تأكيد، أن هذا القرآن لم يصدر عن نفس بشرية.

ودراساته في هذا الجانب تستحق بحثاً مستقلاً بين منهج الشيخ - رحمه الله - وبحلل فكرة الذي نمدته من أحكم وأفوى وأخصب ما كتب في هذا الباب، في هذا العصر.

فضلاً عن أنه أقرب إلى افتتاح العقل المعاصر، وسوف تعرض صوراً من جهده الطيب راجين أن يلتفت به.

#### سر التسمية بالقرآن والكتاب :

يقول الشيخ - رحمه الله - « القرآن في الأصل مصدر على وزن فعلان بالضم كالغفران والشكران، والتكلمان. تقول: قرأته قرأاً، وقرأته وقرأتاً بمعنى واحد، أي تلوته تلاوة.

وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » (١). أي قرأه.

ثم صار علماً شخصياً لذلك الكتاب الكريم، وهذا هو الاستعمال الأغلب

---

(١) الفياض الآية ١٧ وما بعدها.

ومنه قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » (١) .

وروى في تسميته قرآنا كونه متلوا بالأسن ، كما روى في تسميته كتابا كونه مدونا بالانلام . فكنا التسميتين من تسميه شيء بالمعنى الواقع عليه .

وفي تسميته يهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لاني موضع واحد . أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً ، أن تفصل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بهما الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها ، بق القرآن محفوظاً في حرز حزين ، إنجاز الوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول : « أنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٢) . ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى : « والرايون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله (٣) أي بما طلب لإيهم حفظه .

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جى بها على التوقيف لا على التأيد ، وأن هذا القرآن جى به مصداقاً لما بين يديه من الكتب ومبرهاً عما كان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائد عليها بما شاء الله زيادته ، وكان ساداً مسدها ، ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً غير له أسبابه . وهذا الحكيم العليم (٤) .

(١) الإسراء ٩ (٢) الحجر ٩ (٣) المائدة ٤٤

(٤) انظر : النبأ العظيم الدكتور محمد عبد الله دراز ١٢ : ١٤

طرف من سيرة الرسول بإزاء القرآن .

وكانى بك ههنا تحب أن أؤدم لك من سيرته ﷺ المطهرة مثلاً واحدة  
الهدالة على مبلغ صدقه وأمانته فى دعوى الوحي الذى نحن بصدده ، وأنة  
لم يكن لىأتى بشىء من القرآن من تلقاء نفسه فأياك طرأ من ذلك .

لقد كانت تزل به نوازل من شأها أن تحفزه إلى القول ، وكانت حاجته  
القصدوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً ،  
ولكنه كانت تمنى الليال والأيام تنبها إلى اللى والأيام ، ولا يجد فى شأها  
قرأناً يقرؤه على الناس .

ألم يرجف المنافقون بحديث الالفك عن زوجه عائشة رضى الله عنها ،  
وأبطأ الوحي ، وطال الأمر والناس يحوذون ، حتى بلغت القلوب الحناجر ،  
وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس : لى لا أعلم عنها إلا  
خبراً ، ثم إنه بعد أن بذل جهده فى التحرى والسؤال واستشارة الأصحاب ،  
ومضى شهر بأكله والكل يقولون ما علمنا عليه من سوء لم يزد على أن قال لها  
آخر الأمر : يا عائشة ، أما إنه بلغنى كذا وكذا ، فإن كنت برينة فسيرك الله ،  
وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله .

هذا كلامه بوحى ضميره ، وهو كما ترى كلام البشر الذى لا يعلم الغيب  
وكلام الصديق المثبت الذى لا يتبع الظن ، ولا يقول ما ليس له به علم . على  
أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل مصدر سورة النور  
معلناً برأيتها ، ومصدراً الحكم المهدم بشرفها وطهارتها (١)

(١) قال تعالى : إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . لا تحسبوه شراً  
لكم بل هو خير لكم . لعل أمرى منهم ما اكتسب من الإثم . والذى =

فإذا كان يئنه — لو أن أمر القرآن إليه — أن يتفول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها مرضه ، ويذب بها عن هريته . وينسبها إلى الوحى الساوى لتقطع أسننه المتخربين ؟ ولكية ما كان ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله . ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه بالبين . ثم أقطعنا منه الوتين . فامنكم من أحد عنه حاجزين (١) .

وأخرى كان يحينه القول فيها على غير ما يحبه وبهواه ، فيخطئه في الرأى يراه . . . ويأذن له في الشيء لا يبل إليه ؛ فإذا تلبث فيه يسهرا تلقاه القرآن بالتمنيف الشديد ، والعتاب القاسى ، والنفذ المر ، حتى فى أقل الأشياء خطرا . . . يأياها التي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضات أزواجك (٢) . . . وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخفى الناس واقه أحق أن تخشاه (٣) . . . عفا الله عنك لم أذنهم حتى يبين لك الذين صدقوا . وتعلم الكاذبين (٤) . . . ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (٥) . . . ما كان لنى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . ترهبون عرض الدنيا . والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٦) . . . أما من استغنى فأنه له تصدى . وما عليك ألا يركى . وأما من جهلك يسمى وهو يخشى فأنه عنه تلهى (٧) .

== تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا . وقالوا هذا إنك مبين ، النور ١١ ، ١٢

- |                           |                |                          |
|---------------------------|----------------|--------------------------|
| (١) الخافه ٤٤ وما بعدها . | (٢) التحريم ١  | (٣) الاحزاب ٣٧           |
| (٤) التوبة ٤٣             | (٥) التوبة ١١٣ | (٦) الاقوال ٦٧ وما بعدها |
| (٧) عيس ٥ وما بعدها .     |                |                          |



أرايت لو كانت هذه التقرينات المؤلمة صادرة عن وجدانه ، معبرة عن نفسه ، ووخر ضميره حتى بدا له خلاف ما قرط من رأيه . أكان يعلمها عن نفسه بما التهويل والتشنيع ؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه ، وإستبقاء لحرمة إرادته ؟ بلى ، إن هذا اقران لو كان بفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان ، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات . ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانها ، وما هو على الغيب بضيقين ، (١) .

وتأمل آية الاتفال المذكورة ، تجد فيها ظاهرة عجيبة ، فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر ، وقبول الفداء منهم ، وقد بدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة ، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها ، وتعطيت النفوس بها ، بل صارت هذه السابغة التي وقع التأنيت عليها هي القاعدة لهاجاء بعدها .

فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام — لو كان عن النفس مصدره — يمكن أن يصدر عنها آخره ، ولم تفض بينهما فقرة تفصل بين زجيرة الغضب والندم ، وبين أقسامة الرضا والإستحسان ؟

كلا ، وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متتابعين لكان الثاني منهما لإضراباً عن الأول ، ماحياله ، ولرجع آخر التكرار وفقاً لما جرى به العمل . فأى داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر المحصور وتسجيله ، على ما فيه من تقرير حلقى بغير حق وتنقيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالاً طيبة ؟

إن الذى يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ههنا آيته شخصيتين منفصلتين . وأن هذا صوت سيد يقول لعبده . لقد أسأت ولكنى صفوت عنك وأذنت لك .

وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التى وقع العتاب عليها ، لوجدتها تنحصر في شئ واحد وهو أنه عليه السلام كان إذا ترجع بين أمرين ، ولم يجد فيهما إنما اختار أقربهما إلى رحمة أهله ، وهداية قومه وتأليف خصمه وأبعدهما عن الغلظة والجفاء ، وعن إثارة الشبه في دين الله ، ولم يكن بين يديه نص يخالفه كفافاً ، أو جاوزه خطأ ونسباً ، بل كل ذنب أزه يجتهد بذل وسعه في النظر ، ورأى نفسه غيراً فتخير . هبه يجتهداً أخطأ باختيار خلاف الأفضل . أليس معذوراً وما جوراً ؟ على أن الذى اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية ، وإنما نهية القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية هل ترى في ذلك ذنباً يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب ؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية ، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب ؟

قوى عبد الله بن أبي كبير المنافقين . فكففته النبي في ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلى عليه ، فقال عمر رضى الله عنه : أتصلى عليه وقد تهاكرك فقال صلى الله عليه وسلم : إنما خيرني ربي فقال : استغفر لهم ، أولاً تستغفر لهم . إن تستغفر لهم سبعين مرة ، وسأزيد على السبعين ، وصلى عليه .

فأنزل الله تعالى : ولا تصل على أحد منهم مات أبداً . ولا تنقم على غيره ، (١) فترك الصلاة عليهم .

اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين ، وأنظر ماذا ترى ؟

أنها تمثل لك نفس هذا العبد الخاضع ، وقد اتخذ من القرآن دستوراً يستملأ أحكامه من نصوصه الحرفية ، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم ، وقد آتس من ظاهر النظم الأول تغييراً إلى بين طريقين فسرعان ماسلك أقربهما إلى الكرم الرحمة ، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاهد النص الصريح بالمنع .

وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة ، ومعنى البشرية الرحمة الرقيقة وتجلى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن . معنى القوة التي لا تتحكم فيها البراءة والأغراض بل تصدع بالبيان فرقاً بين الحق والباطل ، وميزاً بين التخييل والطيب ، أحب الناس أم كرهها رضوا أم سخطوا . آمنوا أم كفروا ، إذ لا تزيد طااعة الطائنين ، ولا تنقص معصية العاصيين ، فترى بين المقامين ما بينهما ، وشتان بين سيد ومسود ، وعابد ومعبود (١) .

#### البيان والاحمال :

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ، ولا تجدها فيما سواه . ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لناوئيل ، وإذا أجملوا ، ذهبوا إلى الإبهام أو الإلياس . أو إلى اللغو الذي لا يفيد ، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد .

ونقرأ القطعة من القرآن فتجد في أنفاظها من الشفوف ، والملاسة والأحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ، ما يتسابق به منزهاتها إلى

(١) انظر النبأ العظيم ٢٣ - ٢٨ .

ففسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث : كأنك لا تسمع كلاما وانذات  
بل ترى صوراً ، وحقائق ماثلة . وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خيراً  
ووقفه على معناه محدوداً .

هذا ولورجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير  
الذي سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك . . حتى ترى للجملة الواحدة ،  
أو الكلمة الواحدة وجوها عدة كلها صحيح أو محتمل للصحة (١) . كما

(١) هذا مثل صغير : اقرأ قوله تعالى : « وانه يرزق من يشاء بغير  
حساب » سورة البقرة الآية ٢١٢ . وانظر هل ترى كلاماً أبين من هذا في  
هقول الناس : « ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة ، فذلك لو قلت في معناها  
إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله : لماذا يؤعط  
الرزق لهؤلاء ، ويقدره على هؤلاء ، أصبت .

ولو قلت إنه يرزق بغير تقدير ولا محاسبة لنفسه عند الاتفاق خوف  
الانقراض . أصبت .

ولو قلت إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحاسب أصبت .

ولو قلت إنه يرزقه بغير معاتبة ، مناقشة له على عمله أصبت .

ولو قلت يرزقه رزقا كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب أصبت .

فعل الأول يكون الكلام تقرير الفاهمة الازدقاق في الدنيا ، وأن نظامها  
لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بطلبه أو عمله ، بل تجري  
وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء وفي ذلك مافيه من التسلية لفقراء  
المؤمنين . ومن الهضم أنفوس المفرودين من المترفين .

وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزانة وبسطة يده جل شأنه ، وعلى  
الثالث يكون توبيخاً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر

هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعا ، فإذا نظرت إلى إضلاعه  
جملة هرتك بالوان الطيف كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع  
واملك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت وهكذا تجد  
كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كل منها ما يسر له ، بل ترى محيطاً مترامى  
الأطراف لا تحده عقول والأفراد ، ولا الأجيال .

وستوجه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآني ومناة نظمته ،  
وصحيب تصرفه حتى يؤدي لك المعنى الوافر الثري ، في اللفظ القاصد  
النقي .

ولانحسب أننا سنضرب لك الأمثال بتلك الآيات الكريمة التي وقع  
اختيار الناس عليها ، وتواصفوا بالاجاب بها ، كقوله تعالى : « وقيل يا أرض  
ابلمي ماءك - الآية » (١) وقسوله « ولكم في القصص حياة » (٢)  
وأشابههما .

بل تريد أن نجيتك بمثال من عرض القرآن في معنى لا يابه له الناس ،  
ولا يقع اختيارهم على مثله عادة ، ليكون دليلاً على ماوراءه .

يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود : « وإذا قيل لهم : امنوا بما أنزل

== حتى يدل صبرهم يسرا ، وفقهم غنى من حيث لا يظنون .

وعلى الرابع والخامس يكون وعدا الصالحين أما بدخولهم الجنة بنير  
حساب ، ولما بمضايفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العد . ومن وقف  
على علم التأويل وأطلع على معتقك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك  
العجب العاجب هامش النبي العظيم ١١٧ - ١١٨ .

(١) هود ١١ :

(٢) البقرة الآية ١٧٩ .

الله . قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه . وهو الحق مصدقا لما معهم .

قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ (١) .

هذه قطعة من فصل من قصة بن اسرائيل . والتمسرا الاصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تلخص فيما يلي .

١ - مقاله ينصح بها الناصح لليهود ، إذ يدعوهم إلى الايمان بالقرآن .

٢ - اجابهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين :

٣ - الرد على هذا الجواب بركتيه من عدة وجوه :

وأقدم لو أن عاميا بليفا وكلمة لآيه المخصوصة بالسان القرآن في هذه القضية ، ثم هدى إلى استنباط هذه المعاني التي تحتاج في نفس الداعي والمدهور لها وسمة في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات ، ولعله بعد ذلك لا يبق بما حوّلها من اشارات ، واحتراسات ، واداب ، وأخلاق .

قال الناصح لليهود . آمنوا بالقرآن ، كما آمنتم بالنوراة ألستم قد آمنتم بالنوراة التي جاء بها موسى لأنها أنزلها الله ، فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله فآمنوا به كما آمنتم بها .

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير ، في هذا اللفظ الوجيز . آمنوا بما أنزل الله . . . وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن ، إلى كنايةة لجمل دعاهم إلى الايمان به دعاه إلى التي بصحته . وبذلك أخرج الدليل ، والدعوى في لفظ واحد .

---

(١) البقرة الآية ٩١ وما بعدها .

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله . على محمد ، مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة .

أتدري لم ذلك ؟

لأنه لو ذكر اسكان في نظر الحكمة البيانية زائدا ، وفي نظر الحكمة الارشادية مفسدا

أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا تدخل لها في الالتزام ، فأثير الأمر على القدر المشترك . وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدليل

وأما الثاني فلأن إلقاء الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغاثهم ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصد الداعي من التأليف والاصلاح .

ذلك إلى ما في هذا الحذف من الاشارة إلى ضايع الاسلام ، وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة ، بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان ، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء ، بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والتابون من ربهم ، لا تفرق بين شيء من كتبه ، كما لا تفرق بين أحد من رسله .

كان جراب اليهود أن قالوا : إن الذي دعانا للإيمان بالنوراة ليس هو كونها أنزلها الله لحسب ، بل إننا آمنّا بها لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله علينا فلنكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أمة شرعة ومنهاج .

هذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله : نؤمن بما أنزل علينا ، وهذا هو المقصد الأول ، وقد زاد في لمجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الانزال وهو لفظ الجلالة ؛ لأنه تقدم ذكره في نظيرتها .

من البين أن اقتصارهم على الإيذان بما أنزل عليهم يؤمى إلى كفرانهم

بما أزل على غيرهم ، وهذا هو المقصد الثاني . ولكنهم نحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر . فأراد القرآن أن يرزقه . انظر كيف أرزقه ؟ أنه لم يجعل لازماً مذهبهم مذهباً لهم ، ولم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالهم : فقال . « ويكفرون بما وراءه » اليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ « ما وراءه » فإن لهذه الكلمة وجهاً تعم به غير القرآن ، ووجهاً تخص به هذا العموم : ذلك أنهم كما كفروا بالقرآن المنزل على محمد كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى ، وكلاهما وراء التوراة أي جاء بعدها . ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلاً . وهكذا نراه قد حدد الجريمة تمام التحديد باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع . وهذا هو غاية الانصاف وتحرى الصدق في الاتهام

جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه فقرأه لا يبدأ بمعاراتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتاً كأنها مسألة إيمانية عابئة وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول : كيف يكون إيمانهم بكتاب باعثة على الكفر بما هو حق مثله ؟

لا ، بل « هو الحق » كله (١) وهل يعارض الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجبا للكفر بالآخر ؟

ثم يترقى فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً

(١) فإن ما سواه إن خالفه كان شاهداً على نفسه بالاطلاق ، وإن كان صحيحاً أو محتملاً للصحة . فهو إذا معيار الحق وميزانه .



فلا يتكاذبان ؛ ولكلّهما في شأنين مختلفين ، فلا يشهد بعضها لبعض . أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً ومصدقاً لما بين يديه من الكتب ، فأني يكتب به من يؤمن بها ١٤

ثم يستمر في اكمال هذا الوجه قائلاً : ولو أن الحريص ، أو الضياع الذي نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جملة لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن إذ يحق لهم أن يقولوا : « إن البقية المحفوظة من هذه الكتب في عصرنا ليس بينها وبين القرآن هذا التطابق والتصادق ، فليس الايمان بها موجبا للإيمان به »

بل لو أن هذه البقية ليست عندهم ، ولكلّهم كانوا عن دراستها غافلين لكان لهم مثل ذلك العذر . أما وهذا القرآن مصدقاً لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ، ويدرسونه بينهم ، فما يعتدرون ، واني يذهبون ؟ هذا المعنى كله يؤدبه لنا القرآن بكلمة « لما معهم »

فانظر إلى الأحكام في صيغة البيان : إنما هي كلمة رفعت (١) وأخرى وصغت (٢) . في مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت هذه الكلمة حياء اسكل هنر ، وسدا لكل باب من أبواب الارب ، بل كانت هذه الكلمة وجدها بمثابة حركة تطويق للمخضم أتمت في خفاوة واحدة وفي غير ما جلبة ، ولا ملنطنة .

(١ ، ٢) ذلك أن مقتضى السياق أن يقال : « مصداقاً لما أنزل عليهم » ولكنه لأمر ما هي عن كتابهم ذلك اللقب القديم . وأدسه هذا العنوان الجديد ، ولو بدأت أحد اللقبين مكان الآخر لما صالح أحدهما في موضع صاحبه ، بل لو جئت بلقب آخر فقلت « مصداقاً لما هو باق في زمنهم » أو « مصداقاً لما عندهم » لما تم الالتزام وهذا من عجيب شأن القرآن لا تبديل لكلماته .

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى الذى ساقه ساق  
الاعتراض والاستطراد . ، استوى إلى الرد على المقصد الاصلى الذى  
تبعوا بإعلانه ، والافتخار به ، وهو دعواهم الايمان بما أنزل عليهم  
فأوسمهم لكذابا وتفتيدا ، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم ، قد أشربوه  
في قلوبهم ، ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضا مزمننا . وأن الذى  
أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حافة متصلة بسلسلة  
كفرهم بما أنزل عليهم ، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المقطعة إلى  
لاسيبل لانكارها ؛ في جهلهم باقه ، وانها كهم لحرمة أنبيائه وأمردهم  
على أوامره . قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟

١ - تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له في آخر  
المرحلة السابقة إذ يقوم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم أنهم صاروا  
مكذبين بسكتاتهم نفسه : وهل الذى يكذب من يصدقك يقى مصداقا  
لك ١٤ .

غير أن هذا الممنى إنما أخذ استنباطا من أقوالهم ، والزاما لهم بمآل  
مذهبهم ولم يؤخذ بطريق مباهر من واقع أحوالهم . فكانت هذه هي مهمة  
الرد الجديد

وهكذا كانت كلمة مصدقا لما معهم ، مغللا لما قباها مفتاحا لما بعدها ،  
وكانت آخر درجة في سلم الغرض الاول : هي أول درجة في سلم الغرض  
الثاني .

فأوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام ، وما أرشد هذه القيادة  
للنفس بزمam البيان تدريجيا له على مدارجها ، وتزويلا له على قدر حاجتها  
وفي وقت تلك الحاجة فما هو إن أن آتس تطلع النفس واستشرافها من تلك  
الكلمة إلى غاية ، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ووقفها عليها تمامه  
كاملة .

٢ - وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي ، وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم . فلم يقل : « فلم قتل آباؤكم أنبياء الله . واتخذوا العجل وقالوا سمعنا وعصينا » ؟ ؛ إذ كان القول على هذا الرضع حجة داحضة في بادية الرأي مثلها كمثل حاجة الذئب للحمل في الأسطورة المشهورة (١) فكان يحق لهم في جرائمها أن يقولوا : « ومالنا ولا باتنا ؟ تلك أمة قد خلت ، ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

ولو زاد مثلا : وأنتم مثلم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم ، لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتراخى حبل الكلام وفترت قوته .

فكان اختصار الكلام على ما ترى - بوقفهم بادية ذي بدء في موقف الاتهام - اسرعا بتسديد سهم الحجة إلى هدفها ، وتنبهها في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض وأنهم سواسية في الجرم ، فعل أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الآخر ، لأنهم لا ينفكون على الاثنتان بسنة أسلافهم ، أو الرضى على أماعيلهم ، أو الانعواء على مثل مقاصدم .

٣ - وانظر كيف زاح هذا المعنى ترشيحا بإخراج الجريمة الأولى ، وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع تصورا لها بصورة الأمر الواقع الآن كأنه بذلك يمرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملونة بتلك الدماء الزكية .

٤ - ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح

(١) التي تزعم أن ذنبا هذا على حل صغير بحجة أن أحاه ، أو أباه كان قد هكر عليه ماء الفتاة وهو يشرب منذ عام مضى ، وهي تمثل عدوان القوى على الضعيف استغادا لأو من الأسباب .

( ١٠ - دراسات بلاغية )

بابا من الإيماء لقلب النبي العربي الكريم ، وبابا من الإطباع لأعدائه في  
فصح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله ، فانظر كيف أسعفتنا بالاحتراس من ذلك  
كأنه بقوله « من قبل » فقطع بهذه الكلمة أعينهم ، وثبت بها قلب  
حبيبه ، إذ كانت بمثابة وعدة إياه بعصمته من الناس . ذلك إلى ما فيها من  
تنبيه على أصل وضع الكلام ، وعلى ما صنع به من التجوز المذكور آنفا في  
الإسداء ، وفي الصيغة .

٥ - وانظر كيف جىء بالأفعال في الجرائم التالية على صيغة الماضي  
بدل أن وطأ لها هذه الكلمة : « من قبل » فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي  
حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول .

٦ - وانظر إلى الآداب العالية ، في عرض الجريمة الثانية ، وهي جريمة  
الشرك ، فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها ، وأشد تكراراً في العقول نبيه على  
ذلك ألطف تنبيه يحذف أحد ركنيها ، فلم يقل اتخذتم العجل لها ، بل طوى  
هذا المفعول الثاني استئشاعاً للتصريح به في محبة الأول ، وببابا لما بينهما من  
مفارقة .. وكفى في هذا الحذف من تعبير وتمويل ، قرب صدمته هو أنطق  
بالحكم ، وأنكى في الخصم .

٧ - ثم انظر إلى النواحي التي أوثر فيها الإجمال على التفصيل ، امرأنا  
عن كل زيادة لا تمس إليها حاجة البيان في الحال . فقد قال إن القرآن مصدق  
لما معهم ، ولم يبين مدى هذا التصديق أي أصول الدين لحسب ، أم في  
الأصول والفروع جميعاً ، أم في الأصول وبعض الفروع ، وإلى أي حد؟  
ذلك أن هذا كلام الملوك لا ينتزل إلا بقدر معلوم .

وماذا يعني الداعي إلى أصل الإيمان أن يتد التضايق بين الأديان  
إلى فروعهما أولاً ؟ فليبحث علماء التشريع !

وقال انهم يقتلون أنبياء الله . فمن هم أولئك الأنبياء ؟ ليبحث  
علماء التاريخ !

« وقال إن موسى جاءهم بالبينات فكف هي؟ وما هي؟  
وقال : إنه أخذنا عليهم ميثاقهم . فملى أى شيء كان الميثاق ؟  
إن حكمة البيان القرآنى لأجل من أن تعرض لهذه التفاصيل فى مثل  
هذا الموضوع . ولو ذكرت ههنا لكان مثلها مثل من يسأل لم ضربت عينك؟  
فيقول : لأنى ضربت غلاما اسمه كذا ، واسم أبيه كذا ، وحليته كذا ،  
وولد فى عام كذا ، ألا ترى أن هذا زائد وكثير .

٨ - ولو ذهبنا فنقتبع سائر ما فى هذه القطعة من الاطائف لخرجنا من  
حد التنبيل والتذيه الذى قصدنا إليه .

فلنكتف بتوجيه نظرك فيما إلى سر دقيق لا تراه فى كلام الناس . ذلك  
أن المرء إذا أهمه أمر من الدقاع أو الاقناع أو غيرهما بدت على كلامه  
مسحة الانفعال بأغراضه ، وكان تأثيره بها فى نفسك هل قدر تأثره هو ،  
طبعاً أو تعلباً ، فتكاد تحس بما يجالجه من المسرة فى ظفرك ، ومن الانتماض  
فى اخفاقه ، بل تراه يكاد يهلك أسفاً ، لو أعرض الناس عن هداه ، إذا  
كان مؤمناً بصدقته ، مخلصاً فى دعوته ، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام  
أما هنا فإنك تلح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض ،  
تؤثر ولا تتأثر تصف لك الحقائق خيرها وشرها فى عزة من لا ينفعه خير ،  
واقترار من لا يضره شر .

هذا الطابع من الكبرياء والظلة تراه جلياً من خلال هذا الأسلوب  
المقتصد فى حياجة أخذها وردا ، انما قصد فى وصفه مدحا وقدسا .

انظر إليه حين يجادل عن القرآن فلا يزيد فى وصفه على هذه الكلمة :  
« هو الحق » نعم إنها كلمة تعالى النفس ، ولكن هل تشبهك أيها الانسان تلك  
الكلمة إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق التى تقتنع بها وتحب أن  
تقتنع بها الناس ؟

وانظر إليه بعد أن سجل على بني اسرائيل الخش الفمخش ، وهو  
وضعم البقر الذي هو مثل في البلادة موضع المعبود الاقدس ، وبعد أن  
وصف قدوة قلوبهم في تأييدهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات  
الزهرية ، فترام لا يريد على أن يقول في الأولى : إن هذا ظلم ، . وفي  
الثانية : « بشما ، صنعتم . أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات ؟

نعم لإنهما كلتاهما واغتيان : مقدار الجريمة لو فهمتا على وجهيهما ، ولكن  
أين الألم وحرارة الانتدفاع في الانتقام ؟ بل أين الانتداع والتشجيع ، وأين  
الاسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس ، إذا أحفظوا بالنيل من  
مقامهم ؟

فه ما أحف هذه الخصومة ، وما أعم هذا الجنب وأعزاء من شكر  
الشاكرين ، وكفر الكافرين ، وثاقه إن هذا كلام لا يصدر عن نفس  
بشر (١) .

---

تذوق بعض المتقدمين  
للإبلاغ النبوية

### الجاحظ المتوفى ٨٢٥٥

- وجد الجاحظ في البلاغة النبوية . ما يبهز العقول ، ويشرح الصدور بما كتجمل به من الأفكار القويمة والعبارة البليغة ، فيها المعنى الرشيد ، واللفظ العذب الجميل . فهي فريدة في نوعها ، وحيدة في نسجها .

يقول الجاحظ : « وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي ، ولم يشاركه فيه عجمي ، ولم يدع لأحد ، ولا ادعاء أحد ، مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً

فن ذلك قوله « مات حنظلة أفعى » . ومن ذلك قوله « الآن حمى الوطيس » . ومن ذلك قوله « لا بني سفيان بن حرب : « كل الصيد في جوف الفراء » (١) ومن ذلك قوله « هدنة على دخن ، وجماعة على أقذاء » . ومن ذلك قوله لا يلسع المؤمن من جحر مرتين » .

- ألا ترى أن الحارث بن خندان حين أمر بالكلام عند مقتل يزيد بن المهلب قال : يا أيها الناس ، اتقوا الفتنة ، فإنها تقبل بشبهة ، وتدير ببيان وأن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين ، فضرب بكلام رسول الله ﷺ المثل .
- وقال ابن الأشعث لأصحابه « وهو على المنبر : قد علمنا إن كنا نعلم ،

(١) استأذن أبو سفيان على الرسول عليه الصلاة والسلام فحجبه ، ثم أذن له ، فقال له . ما كنت تأذن لي حتى تأذن لحجارة الجاهلين ، فقال : يا أبا سفيان أنت كما قال القائل « كل الصيد في جوف الفراء » وأراه عليه السلام بما قاله « لا بني سفيان تألفه على الإسلام ، فقال أنت في الناس كسمار الوحش في الصيد .



وفهمنا إن كنا نفهم إن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين ، وقد واثقه سمعت  
بكم من جحر ثلاث مرات ، وأنا استغفر الله من كل ما خالف الإيمان ،  
واعتمد به من كل ما قرب من الكفر .

ففرغ من الكلام :

يقول الجاحظ مشيدا بلغة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وأنا  
أذكر بعد هذا فنا آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وهو الكلام الذي  
قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل من الصنعة ، ونزه عن التشكف ،  
وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : « وما أنا من المنكفئين » (١)

فكتب ، وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب النعمير ، واستعمل المبسوط  
في موضع البسط والمتصويف في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ورغب  
عن المهجين السوق ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام  
قد حنف بالعصمة وشيد بالتأييد ، ويسر التوفيق ، وهذا الكلام الذي ألفي  
الله المحبة عليه ، وغشاء بالقبول ، وجمع له بين المهابة والخلافة ، وبين حسن  
الافهام ، وقلة عند الكلام ، ومع استغنائاه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع  
إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زالت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم  
يقم له خصم (٢) . ولا أفحمه خطيب . بل يبذل الخطب الطوال بالكلام  
القصر ، ولا يلتبس أسكات الخصم ، إلا بمعرفة الخصم ، ولا يحتج  
إلا بالصدق . ولا يطلب الفالج (٣) إلا بالحق ولا يستعين بالخطابه ، ولا يستعمل  
المواربة ، ولا يمز ولا يلز . ولا يعطي . ولا يعجل ، ولا يسرب ولا يحصر

(١) ص ٨٦

(٢) أي لم يطلقه ، ولم يقو على معارضته

(٣) الفالج : الظفر والغلب

ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل  
وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبيا . ولا أحسن موقفا ، ولا أسهل  
مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في غواه ، من كلامه صلى الله  
عليه وسلم .

ولم أرم يذمون المتكلف للبلاغة فقط ؛ بل كذلك يرون المتطرف  
المتكلف اغتناء ، ولا يضمنون اسم المتكلف إلا في المواضع التي يذمونها  
قال قيس بن خطيم (١)

فما المال والأخلاق إلا معارة      فما استطعت من معروفها فتزود  
وإنى لاغنى الناس عن المتكلف      يرى الناس ضلالا وأيس بهتد  
وقال ابن قتيبة (٢)

وحال أنقال إذا هي أعرضت      عن الأصل لا يسطيعها المتكلف  
وقال محمد بن سلام ، قال يونس بن حبيب : ما جاءنا عن أحد من رواتع  
الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ .

من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم :

فمن كلام رسول الله ﷺ حين ذكر الأنصار فقال : أما واقعاءكم  
إلا لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفرح

(١) هو قيس بن الخطيم الأوسي : شاعر جاهلي من فحول شعراء  
المدنية .

(٢) هو عمرو بن قتيبة بن سعد الضبي البكري . شاعر فحل مقدم من  
قدماء الشعراء الجاهليين

وقال : « الناس كلهم سواء كأسنان المشط » .

وقال : « المرء كثير بأخيه » ، و « لاخير في صحبه من لا يرى لك ما يرى لنفسه » .

وقال الشاعر :

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لدى شبيهة منهم على ناشئ . فضلا

وقال آخر :

شبابهم وشيهم سواء فهم في اللؤم أستاذ الحمار  
ولذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته ، وتشبيه النبي ﷺ وحقيقته  
هللت فضل ما بين الكلامين .

وقال رسول الله ﷺ « المسكين تنكح فأدماؤهم ، ويسمى ذمتهم أدنامهم  
ويرد عليهم أقصاهم ، وهم يدعن من سواهم »  
فتفهم رحمة الله قلة حروفه ، وكثرة معانيه .

وقال صلى الله عليه وسلم « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، و « ابدأ بمن  
تعمل » .

وذكر الخيل فقال : بطونها كز ، وظهورها حرز .

وقال : ما قل وكفى ، خير مما كثروا لأمي » .

وقال : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين  
واقتحال المبتطلين ، وتأويل الجاهلين .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : الخير في السيف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف .

وقال : لا تزال أمتي صالحا أمرها ، ما لم تر الأمانة ممتنا والصدقة منمرما  
وقال : إن يملك امرؤ بعد الشورى ، وقال : المستشار مؤتمن ،  
وقال : المستشار بالخيار إن شاء قال ، وإن شاء أمسك ،  
وقال : . . رحم الله عبدا قال خيرا فتم ، أو سكت فسلم  
وقال : . لا تجلسوا على ظهور العاريق ، فإن أيتهم فخنثوا الأبصار ،  
وردوا السلام وأعدوا الضال ، وأعينوا الضعيف ،

وقال إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويكره لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن  
تعبده ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبله جميعا ، ولا تفرقوا ،  
وأن تناصحوا من ولأه أمركم . ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال  
واضاعة المال .

وقال : يقول ابن آدم : مالي مالي ، وإنما لك من ماله ما أكلت فأنت فيه  
أو لبست فأنت فيه ، أو رعبت فأنت فيه ،

وقال : لو أن لابن آدم واهدين من ذهب لساأل إليهما ثالثا ، ولا يملأ  
جوف ابن آدم إلا القرب ، ويتوب الله على من تاب ،

وقال : إن أحبك إلى ، وأقربكم مني مجالس يوم القيامة . أحاسنكم أخلاقا  
المواطنون أكثافا ، الذين يأنفون ويؤنفون . وأن أبغضكم إلى ، وأبعدكم  
من مجالس يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون ،

وقال رجل : يا رسول الله ، أوصني بشيء ينفعني الله به ؟ قال أكثر ذكر  
الموت يسلك من الدنيا ، وعليك بالشكر ، فإن الشكر يزيد في النعمة وأكثر  
الدعاء فإنك لا تدري متى يستجاب لك ،

وقال : أيها الناس إنما بئيتكم على أنفسكم ، وإياك والبئى ، فإن الله قد

قضى أنه من بشى عليه لينصرنه الله ، و « إياك والمكر ، فإن الله قد قضى أن لا ينجح المكر الاىء إلا بأمله » .

وقيل : يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ فقال : اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله .

وقيل له : أى الأصحاب أفضل ؟ فقال : « الذى إذا ذكرت أعانك وإذا نسيت ذكرك » .

وقيل : أى الناس شر ؟ قال : « العلماء إذا فسدوا » .

وقال : دب لايكم داء الأمم من قبلكم . الحسد والبغضاء . والبغضاء هى العداوة حائلة الدين لا حائلة الشمر . والذى نفس محمد بيده لا تؤمنون حتى تحابوا أو لا تبتدكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » . وقال تهادوا تحابوا .

وعن الحسن البصرى قال : قال رسول الله ﷺ . أوصانى ربى بتسمع أوصانى بالاخلاص فى السر والعلانية ، وبالعدل فى الرضا والغضب وبالصدق فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عن ظلمتى ، وأعطى من حرمى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون حتمى فأكرا ، ونطاقى ذكرا ، ونظرى عبدا .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان » .

ومن حديث عبد الله بن المبارك قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « إن قوما ركبوا سفينة فى البحر فاقسموا أنصار لكل رجل منهم موضع ، ففقر الرجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له : ما تصنع ؟ فقال : هو مكانى أصنع فيه ماشيتى ، فإن أخذوا على يديه نجاء ، ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالوالى يجده فوق ما أمر الله

به ، فيقول له الرب : عبي ، لم جعلت فوق ما أمرتك به ؟ فيقول : ربى ، غصبت الغضبك .

فيقول : أ كان ينبغي الغضبك أن يكون أشد من غضبي ؟ ثم يؤتى بالمقصود فيقول : عبي لم قهرت عما أمرتك به ؟ فيقول : ربى ، رحمته ، فيقول : أ كان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي ؟ قال فيأمر فيهما بشئ قد ذكره لا يعرفه ، إلا أنه صيرهما إلى النار .

وقال : من رضى ريقه فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه ، ولا تعذبوا عباد الله . .

وقال فى آخر ما أرمى به : د اقفوا الله فى الضعيفين ، (١) .

وعن الحسن البصرى قال : قال رسول الله ﷺ د حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا البلاء بالدعاء .

وعن الحسن أن النبى ﷺ قال : اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عندكم حواء (٢) وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستملن فروجهن بكلمة الله .

وعن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ د إن الله يحب الجواد من خلقه .

وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت : قال النبى ﷺ د من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب (٣) كان حقاً على الله أن يحرّم لحمه على النار .

وعن ثمامة بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : قيدا العلم بالكتاب ، وقال : فضل جاهك تدور به على أخيك الذى لا جاء له ، صدقة منك

(١) الضميمان : المرأة والعبد .

(٢) العانى : الأسير والجمع عناة ، والأسيرة عانية والجمع عوان

(٣) ذب عن لحمه بظهر الغيب : يعنى دفع عنه عدوان المعتدى عليه بلسانه فى غيبته

عليه . وفضل لسانك تعبر به عن أخيك الذي لا لسان له صدقة منك عليه ،  
وفضل قوتك تعود بها على أخيك الذي لا قوة له صدقة منك عليه وفضل  
هلك تعود به على أخيك الذي لا علم له صدقة منك عليه ، وإما عليك الأذى  
عن الطريق ، صدقة منك على أهله ،

ولنما مدار الأمر وانتهاء التي يجري إليها : القوم ثم الافهام ، والطلب  
ثم التثبيت (١)

---

(١) انظر : البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ - ٢٥٤

### الشریف الرضی المتوفی سنة ٤٠٦ هـ

مترکتاب « المجازات النبویة » للشریف الرضی فريدانی المکتبة العربیة ،  
حيث تناول البیان النبوی ، تناولاً بلاغياً ، امتزجت فيه العسكرة العلییة  
بالروح الأدبیة .

كما یمکس الصورة المشرقة لسمه أفق الشریف ، وغرارة علمه ، وثاقب  
فكره ووفرة ثقافته .

وقد جمع فيه الشریف واحداً وستین وثلاثمائة حديث ، من بدیع البیان  
وبلیغ القول .

ویحرص الشریف فی کتابه « المجازات النبویة » علی الاشادة بالبلاغة  
النبویة لأن صاحبها قد أوتی الحسنة وجوامع الکلم ، وهصل الخطاب ،  
ولذلك بعض ما عالج من قضايا بلاغة فی البلاغة النبویة .

#### التشبيه :

يقول الشریف فی قوله علیه الصلاة والسلام : « العلم خایل المؤمن ،  
والعلم وزیره ، والمقل دليله ، والعمل قیمه ، والین أخوه ، والرفق والده  
والصبر أمیر جنوده » .

المراد بقوله علیه الصلاة والسلام « العلم خایل المؤمن » أنه یأنس به  
من الوحشة ، ویسکن إلیه فی الوحدة ، كما یأنس الخلیل بخليله ، ویسکن  
الحیم إلی حمیمه .

والمراد بقوله علیه الصلاة والسلام : « العلم وزیره » ، أى یقوى به علی  
الأمور ، ویوازره علی کظم المکروه ،



والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والعقل دليله ، أنه بالعقل يتبدى في ظلم المشكلات . وينجو من مضايق الغمرات ، فهو كالدليل الذي يرشد في المضال ، ويجنب عن المزال .

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام « واللين أخوه ، أى اللين يفيد مؤاخاة الآخرين ومخالصتهم ، ويحفظ عليه صفاءهم ومودتهم ، بقوله عليه الصلاة والسلام أخاء من حيث كان سبباً لاجتلاب الآخرين إليه ، وحفظ المردات عليه .

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : والرفق والده ، كالمراد بقوله : « واللين أخوه ، لأن الرفق يقبل إليه بالقلوب ، ويعطف عليه كوامن الصدور فيصير كل واحد في الحنو عليه ، والميل إليه كالوالد الرؤوف ، والجد العطوف .

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام « واتصبر أمير جنوده ، أن الصبر ملاك أمره وشداد أزره ، وبه تبلغ الأرباب ، وتدرك الخباب ، فهو كأمير جنده الذي يقوى به على أعدائه ، ويصل به إلى أغراضه وطلباته .

وقد يجوز أن يكون المراد أن الصبر رأس خلاله ، ورئيس خصاله فهو متقدم عليها كالأمير لسائرهما ، كما أن الأمير متقدم على رعيته ، وله شأن على من في طبيقته (١) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام ، الخرام الحباث ، ومن شربها لم يقبل الله منه صلاة أربعين يوماً ، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية . :

سماها عليه الصلاة والسلام ، أم الحباث ، على تغليب النهى عن شربها ،  
وتمظيم قدر العقاب عليها ، فيكأنها جماع الحباث المردية ، ومعظم الذنوب  
المروبة ، كما أن الأم جامعة لأولادها ، ومتقدمة عليهم بميلادها ، والفائدة  
في تقديمها على غيرها من المعاصي أن الأغلب في شربها أن يكون طريقا  
إلى ارتكاب الكبائر ، وجر الجرائز ، فإن السكران قد يحمله سكره على  
القذف والافتراء وإراقة الدماء ، واستحلال الفروج والأموال ، وغير ذلك  
من مهالك الذنوب ، ومعظم العيوب ، وكل هذا فالسكر من أقوى أسبابه ،  
وأقرب أبوابه (١) .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام "المؤمن مرآة أخيه" ، يقول : المراد  
أن المؤمن الناصح لأخيه المؤمن يصره موافق رشده . ويطلع على خفايا  
عيبه ، فيكون كالمראה له ينظر فيها محاسنه فيستحسنها ، ويزداد منها ، ويرى  
مساويه فيستقبحها ، وينصرف عنها (٢) .

ويقول في قوافيه عليه الصلاة والسلام : القلوب أوعية بعضها أوعى  
من بعض .

المراد تشبيه القلوب بالأوعية ، وهي الظروف والعياب (٣) التي تحدد  
فيها الأمانة وغيرها من الأشياء المحفوظة ، وهي كالآنية لاينطاع الأشياء  
المائتة ، إلا أن الأوعية تختص بالجامدات ، كما أن الآنية تختص  
بالمائتات ، فالقلب من حيث حفظ ودمى ، كالوعاء من حيث جمع  
وأوعى (٤) .

(١) المجازات النبوية ٢٤٣

(٢) المجازات النبوية ١٩

(٣) العياب جمع عيبة : الوعاء يكون فيه المناع .

(٤) المجازات النبوية ٣٩١

وفي قوله عليه الصلاة والسلام - وقد مر على قوم وقوف على ظهور دوابهم ودوابهم يتنازعون الأحاديث - لا تتخذوها كراشي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، قرب مركوب خير من راكبه ، يقول الشريف : شبه عليه الصلاة والسلام الدواب والرواحل في حالة إطالة الوقوف على ظهورها ، بالكراسي التي يجلس عليها ، لأنها تثبت في مواضعها ولا تزول إلا بزيل لها ، فهي عليه الصلاة والسلام أن يجعل الحيوان المنصرف بمنزلة الجماد الثابت والثقل الثابت (١) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام ، في وصف الفرس الذي جاء سابقاً : إنه ليحر .

ربما طعن بعض الجهال بمناويع كلام العرب في هذا القول ، بأن يقوله : كيف شبه عليه الصلاة والسلام سرعة جري الفرس بالبحر ، والبحر اكد لا يجري ، وقائم لا يسرى ؟

الجواب أن يقال : إنما شبه عليه الصلاة والسلام اتساعه في الجري ، باتساع ماء البحر ، ألا تراهم يقولون ، إنه لو اتسع الحضر (٢) ووسع الخطوط (٣) ، يزيدون هذا المعنى ، والبحر في كلام العرب الشيء الواسع ، ومن هنا سموا البلدة المتسعة الأقطار بحرا .

(١) أي ثبت في الأرض ، وثباته في الأرض يدل على ثبوته فيها لأن جذوه مفروسة فيها - المجازات البنيوية ٤٣٧ .

(٢) الحضر : ارتفاع الفرس في عدوه ، أي واسع مسافة ارتفاعه عن الأرض ، أثناء عدوه وجريه .

(٣) أي واسع الخطر ، فواسع بمعنى واسع .

(١١ - دراسات بلاغية)

وقد يجوز أن يكون المراد بتشيده بالبحر أن جريه غزير لا ينفد ،  
كما أن ماء البحر كثير لا ينضب ، ويقال للفرس الكثير الجرى : بحر  
وفيض وسكب ، وعلى هذا قول الشاعر :

وفي البحور تفرق البحور

قيل أراد الخيل السابقة التي تسبقها خيل أسبق منها ، فقد بان أن التشبيه  
واقع موقعه ، وأن الطاعن فيه لم يعم غرضه (١) .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام : دكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بمحمد الله  
أقطع يقول : إنما شبه عليه الصلاة والسلام الأمر الذي تهم الأفاضة فيه ،  
وتمس الحاجة إلى الكلام عليه ، إذا لم ينظر حمد الله سبحانه وتعالى ،  
بالأقطع اليد من حيث كان قالصا (٢) عن السبورغ ، وقصا عن البرغ .

وعما يقوى ذلك ما رواه أبو هريرة أيضا قال : قال عليه الصلاة والسلام  
: الخطبة التي ليس فيها شهادة كاليد الجذماء (٣) فأقام عليه الصلاة والسلام  
: نقصان الخطبة مقام نقصان الخلافة (٤) .

(١) المجازات النبوية ١٨٦ .

(٢) قالصا : قاصرا ، والسبورغ : التمام والشمول .

(٣) اليد الجذماء : التي ذهب أظفارها .

(٤) المجازات النبوية ٢٤٤ .

#### الاستمارة :

في قوله عليه الصلاة والسلام لحادى عطيه : يا أنجشة وفقاً بالقوارير .  
• أنجشة : مولى النبي صلى الله عليه وسلم وحادى عطيه : أى الذى يغنى  
للإبل أثناء سيرها حتى يسلم عليها السير ، ويخفف عنها التعب . والقوارير :  
جمع قارورة وهي مائر فيه الشراب ونحوه سواء كان من الزجاج ، أو من  
غيره ، وقيل مخصوص بالزجاج ويجب حمله هنا على ما كان من الزجاج لأنه  
الذى يشبهه أدنى خدش ، ويشبهه أرق مس . .

يقول الشريف : وهذه استمارة عجيبة ، لأنه عليه الصلاة والسلام ،  
شبه النساء في ضعف التحايز (١) ، وهن الفرائز (٢) بالقوارير الرقيقة ،  
التي يوهنها الخفيف ، ويصدعها اللطيف ؛ فنهى عن أن يسمعن ذلك الحادى ،  
ما يحرك مواضع الصبوة وينقض مما قد عفا (٣) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة ، حتى يظهر  
الفحش والبخل ، ويخون الأمين ، ويؤتمن الخائن ، وتملك الوهول ، وتظهر  
التحوت » . الوهول : وجوه الناس وأشرافهم (٤) ، والتحوت الذين كانوا  
تحته أقدام الناس لا يؤبه بهم (٥) .

فقوله عليه الصلاة والسلام : الوهول والتحوت مجازان على التفسير  
الذى ذكره صلى الله عليه وسلم ، لأنه شبه عليه الصلاة والسلام الناس

---

(١) التحايز جمع تحيزه ، وهي الطيبة

(٢) الفريزة : الطيبة القويمة والسجية

(٣) المجازات النبوية - ٣٠

(٤) الوهول في الأصل التيس الجبل الذى يسكن أعالي الجبال .

(٥) التحوت جمع تحوت ، وهو مقابل فوق

وجعلتهم بالوعول ، لأنها تملأ قلل الجبال (١) وتكون في شرف (٢) -  
الخصاب ، فهي أبداً عالية المنازل ، بعيدة عن التناول .

وقوله : التحوت ، وهو جمع تحت ، يريد به الحاملين المغمورين والقليلين  
الدليلين ، لأنهم الطبقة السفلى من الناس ، وهم الذين نزلوا عن غايات العلية ،  
وقعدوا بمهابط الدلة ، فسكانهم تحت أجلة الناس وأشرفهم ، والإشراف  
والوجوه فوق لهم .

وتفهمه التحوت بأنهم الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلمهم  
مجاز آخر ، وليس المراد أنهم كانوا تحت مواطئ الأقدام على الحقيقة ،  
ولأن المراد أنهم كانوا من نخول الذكر . ونحو من القدر بحيث يشبهون  
بالشيء الموطوء لذاته ، والمنيوؤ لبذله (٣) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام - لما أمر برجم اليهودي الذي  
زنا بعد أن وافق اليهود على أن حد الزنى المحصن عندم الرجم ، دون الجلد ،  
وكانوا أنكروا ذلك ثم أقرؤا به - فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم إني  
أول من أحيا أمرك إذ أماتوه .

وهذه استمارة ، والمراد إني أول من أظهر أمرك ، إذ ستروه ، وأذاعه  
لذ كتموه فأقام عليه الصلاة والسلام الأظهار مقام الأحياء ، والأخفاء مقام  
الإماتة ، لأن الحى ظاهر منتشر والميت خاف مستتر (٤) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام : د لعد غفلت النظر يا عدواقه .  
وفي هذا الكلام استمارة ، لأن غفلة الشيء هو ادخاله في شيء حتى

(١) قلة كل شيء : قته وأعله واجمع قلل وقلل

(٢) شرف الجبال أعاليها .

(٣) لا يتذله - المجازات النبوية ٢٨٦

(٤) المجازات النبوية ٣٩٦

يلتبس به ، ويصير من جملته ، وذلك لا يصح في نظر الانسان إلا عن طريق  
المجاز والانتساع ؛ فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن هذا الإنسان بلغ  
بنظره من محاسن هذه المرأة إلى حيث لا يبلغ ناظر ، ولا يصل واصل ،  
فكان كالشيء . المتأمل الذي يدق مدخله . ويلطف مسلكه ، ويمد  
متولجه (١) .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام - في وصية لمعاذ بن جبل - « وأمت  
أمر الجاهلية إلا ما حسن » .

يقول : وهذه استعارة ، والمراد توصيته أن يحيل أمر الجاهلية ، ينقض  
أحكامها ، ويخفف أعلامها ، حتى ينسى ذكرها ، ويغفو أثرها ، فتكون  
كالميت الذي نسي ذكره ، وانقطع خبره (٢) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام - وهو يتجهز لغزوة تبوك -  
« إن على جناح سفر » .

وهذه استعارة واقعة موقعا ، ومقرطة غرضها (٣) . لأنه عليه الصلاة  
والسلام شبه السفر بالطائر الذي قدم بالمطار (٤) .

وجعل الأخذ أهبة المسافرين كالسكان على جناح ذلك الطائر ، ينتظر  
نهوضه (٥) ، ويرقب تحليقه (٦) .

(١) متولجة : مدخلة - المجازات النبوية ١٢٧

(٢) المجازات النبوية ١٨٨

(٣) الغرض : ما ينصب هدفا لإصابته ، ومقرطة : أى مصيبة هدفها ، يقال  
رمى فقرطان إذا أصاب الهدف .

(٤) المطار : مصدر ميمي من طار ، يزيد الذي هم بالطهران .

(٥) يقال نهض الطائر إذا بسط جناحيه ليظهر ومصدره النهض والنهوض

(٦) المجازات النبوية ١٣٤

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تمشوا على أعقابكم القهقري »  
وهذه استعارة والمراد لا ترجعوا عن دينكم ، ولا تكفروا بعد إيمانكم ،  
فتكونوا كالراجل يسح على عقبه عاكسا لقدمه ، وتأكسا بعد تقدمه  
فهذا وجه .

وقد يجوز أن يكون المراد لا تولوا عن الدين راجدين ، وتلتوا عنه  
مضطربين . فمهر من الرجوع بعد الذهاب بالرجوع على الاعتقاد ، لأن  
من عادتهم أن يقولوا رجع فلان على عقبيه ، إذا أهر من وجهه ، أو عالف  
قصد جهته . والمعنيان متقاربان (١) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تنال المرأة طلاق أختها  
لتكتنف ما في إناثها » .

وفي هذا الكلام استعارة ، لأنه عليه الصلاة والسلام ، أراد أن المرأة  
لا ينبغي أن تطلب طلاق أختها لتتصل بالزوج الذي كان لها طلبا لأن تهر  
حظا إليها ، وتستبد بالنفع عليها ، فتكون كأنها اكتنفت ما في إناثها : أي  
أمالته الإناث إلى نفسها فقلبتة لتستفرغ ما فيه ، وتستأثر عليها به .

يقال : كفأت الإناث . إذا كبته ، واكتفأته إذا شرب ما فيه أجمع ،  
أو أكل ما فيه أجمع (٢) .

(١) المجاز له النبوية ١٦٦

(٢) المجاز له النبوية ٥٣



#### المجاز المرسل :

يقول في قوله عليه الصلاة والسلام : « واعدوا أن الجنة نحت البارقة » وهذا القول مجاز ، والبارقة هنا السيوف ، وليس الجنة تحتها على الحقيقة ، وإنما المراد أن الصبر تحتها لجهاد الكافرين ، ودفاع أعداء الدين ، يفضي بالصابر إلى دخول الجنة ونزول دار الآمنة ، فلما كان ذلك سبب دخولها ، والوصول إلى نعيمها جاز أن يسميه باسمها (١) .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام لأزواجه : « أمرعكن لحاقي أطولكن يدا » .

والحديث أنهن لما سمعن أمته ﷺ هذا القول ، جعلن يتذاعن (٢) ينتظرن أين أطول يدا ، إلى أن توفيت زينب بنت جحش بذياب الأسدى أول من توفي منهن ، وكانت كثيرة المعروف ، فعلن حينئذ أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراه بطول اليد كثرة الهر ، وبذل الوفر ، لأن الأغلب أن يكون ما يعطيه الإنسان غيره من الرغد والهر ، أن يعطيه ذلك بيده ، فسمى التيل (٣) باسم اليد إذ كان في الأكثر إنما يكون مدفوطا بها رجعتاها عليها (٤) .

(١) المجازات النبوية ١٢٦

(٢) المراد يتذاعن : أي يقعن أذرعهن ليرين أي الأيدي أطول .

(٣) المطاء .

(٤) المجازات النبوية ٦٦

### المجاز العقلي :

يقول الشريف في قوله عليه الصلاة والسلام : « ما من أمير عشرة ، إلا وهو يحسب يوم القيامة مذبذبة يده إلى عنقه ، حتى يكون عمله الذي يطلقه ، أو يوقفه » .

إن العمل على الحقيقة لا يطلق المرء من وثاق ولا يوقفه بعد إطلاق ، وإنما المراد أنه يحسب مذبذبة يده إلى عنقه ، فإن كان عمله صالحا أطلق الله عنه ربة وثاقه وإن كان عملا طالحا زاده الله خناقا إلى خناق .

وإنما أراد عليه الصلاة والسلام الإطلاق والإيقاف للعمل لأنه سببهما صلاحه وفساده مؤثر فيهما .

وقوله : « يوقفه » المراد به يسله ويملكه ، يقال : وقف الرجل يوقف وتفا إذا هلك ، وقد أوقف غيره إذا أهلكه . ومنه قولهم : أوقف فلان دينه إذا علمه وأفسده . ويروى : أو يوقفه (١) والمعتيان متقاربان (٢) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أحمدك على العرق الساكن (٣) والليل النائم (٤) » .

ووصف الليل بالنائم مجاز ، لأن النوم يكون فيه لامة ، ولكنه لما كان مطية للنوم وظرفا له حسن أن يوصف به ، ويضاف إليه . وعلى هذا قول جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المني بنائم (٥)

(١) يوقفه : يملكه . (٢) المجازات النبوية ٢٩٤ .

(٣) يراه بالعرق الساكن الطمانينة وعدم الإزعاج .

(٤) أي النائم صاحبه . (٥) المجازات النبوية ٧٧ .

الكناية :

يقول في قوله عليه الصلاة والسلام في آخر خطبه خملها ببطن عرفه ،  
وذلك في حجة الوداع : « ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي  
موضوع » .

والمراد به إذلال أمر الجاهلية ، وحط أعلامها ، ونقض أحكامها ،  
كما يستدل النبي الموطوء الذي تدوسه الأخمص (١) الساعة والإقدام  
الواطئه فلا يبقى مرفوع إلا وضع ، ولا قائم إلا صرح (٢) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام - في صفة الخوارج - يقرءون  
القرآن يحسبون أنه لهم ، وهو عليهم ، لا يجاوز حناجرهم .

والمراد أنهم لا يعملون بأحكام القرآن وفرائضه ، ولا يأمرون بأوامره ،  
ولا ينزجرون بزواجره ، وكأنه ليس لهم منه إلا الصوت الخارج من  
حناجرهم . يقول عليه الصلاة والسلام لا يعرف القرآن إلا بهذه (٣) وتلاوته  
دون العمل بأحكامه وواجباته وقد روى أيضا لا يجاوز تراقيم (٤) والمعنى  
واحد (٥) .

---

(١) الأخمص : جمع حمص ، وهو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم .

(٢) المجازات النبوية ١٢٥

(٣) بهذا ، سرعة القراءة .

(٤) التراقي : جمع ترقوه وهي مقدم الحلق في أعلى الصدر .

(٥) المجازات النبوية ٣٥٥



صور من تنوع بعض المعاصرين  
للبلاغة النبوية

### مصطفى صادق الرافعي المتوفى سنة ١٩٣٧م

وينظر الرافعي - رحمه الله - إلى بلاغة رسول الله صلى الله عليه وسلم، نظرة العالم المدقق، والأديب المنتدق فيجدها والبلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لأينها، وحررت العقول دون غايتها، لم تصنع وهي من الأحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها، وهي على السهولة بعيدة بمنوعة.

ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بهلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الرحي، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، بحكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفصول، حتى ليس فيها كلمة مفصولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها قبض قلب يتكلم، وإنما هي في سمورها واجادتها مظهر من خواطره عليه السلام.

إن خرجت في الموعظة قلعة أنين من فؤاد مقروح، وإن راحت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح، في مزج يلين فينفر بالدهوع، ويشند فيزور بالدماء، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء (١).

أما فصاحته عليه السلام، فهي من السمات الذي لا يؤخذ فيه على حته، ولا يتعلق بأسبابه متعلق، فإن العرب، وإن هذبوا الكلام وحذقوه، وبالغوا في أحكامه ونحوه، إلا أن ذلك قد كان منهم من نظر متقدم، ودوية مقصودة، وكان عن تكلف يستعان له بأسباب الاجادة التي تسمو إليها الفطرة الغفوية فهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعا مقدرا، على أنهم مع

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣١٢

ذلك لا يسلّمون من هيبوب الاستكراه والزال والاضطراب ومن حذف  
فى مواضع اطناب ، واطناب فى موضع حذف ، ومن كلمة غيرها أليق ،  
ومعنى غيره أرد ، ثم هم فى باب المعانى ليس لهم لإحكة التجربة ، وإلا  
فضل ما يأخذ بعضهم عن بعض ، قل ذلك أو أكثر ، والمعانى هى التى تمر  
الكلام ، وتستتبع ألفاظه ، وبحسبها يكون ماؤه وروقه ، وعلى مقدارها  
وعلى وجه تأديتها يكون مقدار الرأى فيه ، ووجه القطع به .

بيد أن رسول الله ﷺ كان أفصح العرب ، على أنه لا يتكلف القول  
ولا يقصد إلى تزيينه ، ولا يفتى إليه وسيلة من وسائل الصنعة ولا يجاوز به  
مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريد ثم لا يمرض له فى ذلك سقط  
ولا استكراه ، ولا تستزله الفجاءة ، وما يبدى من أغراض الكلام (١) من  
الأسلوب الرائع ، ومن الخط الغريب ، والطريقة المحسنة بحيث لا يجد الناظر  
إلى كلامه طريقاً يتصفح منه صاعداً أو منحدراً ، ثم أنه لا تعرف له إلا  
المعانى التى هى إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، وما إلى ذلك  
بما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنسانى من البلاغة والتقدير وبراعة  
القصد ، والمجىء فى كل ذلك من وراء الغاية .

ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ إلا توفيقاً من الله وتوفيقاً  
إذا يتحسب العرب وهم قوم يقادون من أستاذهم ، ولهم المقامات المشهورة  
فى البيان والفصاحة ، ثم هم يختلفون فى ذلك على تفاوت ما بين طريقتهم  
فى اللغات ، وعلى اختلاف مواطنهم ، فمن الفصح والأفصح ، ومنهم  
الجانح والمضطرب ، ومنهم ذو اللونة والخاص فى منطقه ، إلى ما كان من  
اشتراك اللغات وانفرادها بينهم ، وتخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ  
مقصودة عليهم ، لا يساهم فيها غيرهم من العرب ، إلا من غالطهم أو دأب  
منهم دأب المأخذ .

(١) أى يقتضيه القول على البداهة ، وما يفجاء من أغراض الكلام  
البعيدة التى تحتاج إلى التقدير والروية وبعد النظر .

فكان صلى الله عليه وسلم يعلم كل ذلك على حقه ، كأنما تكشفه أوضاع  
الجنة بأسرارها ، وتبادره بمفاتيحها . فيخاطب كل قوم بلحنهم وهل مذهبهم  
ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً ، وأسدق لفظاً ، وأبينهم عبارة ولم يعرف  
ذلك غيره من العرب ولو عرف لقد كانوا نقلوه ، وتحدثوا به واستفاض  
فيهم (١) .

#### نسق البلاغة النبوية :

يقول الرافعي : إذا نظرت فيما صح نقله من كلام النبي ﷺ على جهة  
الصناعات النغمية والبيانية ، رأيته في الأول ، مسدد اللفظ بحكم الوضع  
جزل التركيب ، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات ، واضح الصلة بين  
اللفظ وحضرية في التأليف والنسق ، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً ، ولا لفظه  
مستدعاة لمعناها ، أو مستكرهة عليه ، ولا كلمة فهدأ أتم منها أداء للمنى ،  
وتأنيلاً لسره في الاستعمال .

ورأيته في الثانية حسن المعرض بين الجملة ، واضح التفضيل ، ظاهر  
الحدود جيد الوصف ، متمكن المعنى ، واسع الحيلة في تصريفه ، بديع  
الإشارة ، غريب اللمعة ، ناصح البيان ، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراماً ،  
ولا ترى اضطراباً ولا خطلاً ، ولا استعانة من عجز ولا توسلاً من ضيق ،  
ولا ضعفاً في وجه من الوجوه .

وهذه حقيقة راحة دليلها ذلك الكلام نفسه بحملته وتفصيله ، لا يجعلها  
إلا جاهل ، ولا يغفل عنها إلا غافل . فإذا أحضرت إليها ما هناك من سمو  
المعنى وفصل الخطاب وحكمة القول ، ودنو المأخذ ، وأصالة السر ، وفصل

(١) انظر المرجع السابق ٣١٣-٣١٥ .



التصرف في كل طبقة من الكلام ، وما يلحق بهذه وأمثالها من مذهبه ﷺ في الإفصاح ، ومنتحة في التعبير ، مما خص به دون الفصحاء ، وكان له خاصة ، من عظمة النفس ، وكال العقل ، وثقوب الذهن ، ومن المنزعة الجيدة ، واللسان المتمكن - رأيت من جملة ذلك نسفا في البلاغة قلما يتبأ في مثل أفراسه ، وتساوق معانيه لبليغ من البلغاء ؛ إذا جمع الخفاص من سر اللغة ، ومن البيان ومن الحكمة بعضها إلى بعض .

أما اللغة فهي لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكة ، والمنصرف عنها بالاحاطة والاستيعاب ، وأما البيان فبيان أفصح الناس نقاشاً ، وأقوام مذهباً ، وأبلغهم من الذكاء والالهام .

وأما الحكمة فتلك حكمة النبوة ، وتبصير الوحي ، وتأديب الله ، وأسر في الانسانية من فوق الانسانية .

وأين من ذلك الفصحاء والبلغاء وأن لم ؟ وما قط عرفنا بلينا سلس له جهات الصنعة في كلامه - من اللغة والبيان والحكمة - على أنهما بحيث لم يزغ عن قصد الطريقة ولا تحيقتة إحدى هذه الثلاث بإدخال الضم على اختيها في كلامه ، واستبانة أثرها فيه وغلبتها عليه .

( هذا ) والبليغ مر الباء في صناعته وبيانه ، كاشجرة المورقة في روايتها ونضرتها حتى تنسق له أسباب من هذه الأوصاف البيانية ، وتمنقل له طريقة في عقدها وإخراجها ، فيبلغ أن مشمرا ، والنمر بعد متفاوت في أشجار البلاغة نضجا وماء وحلاوة وكثرة ، وما أثمرت من ذلك بلاغة عربية ما أثمرته بلاغة السماء في القرآن الكريم ، ثم بلاغة الأرض في كلامه ﷺ ، والناس بعد ذلك أجمعون حيث طاروا ، أو وقفوا .

فن هذه الاوضاع قوله عليه الصلاة والسلام « مات حنث أنفه » (١) وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : ما سمعت كلمة فريية من العرب - يريد التركيب البياني - إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ ، وسمعتها يقول : « مات حنث أنفه » ، وما سمعتها من عربي قبله .

وقوله في وصف الحرب يوم حنين « الآن حمى الوطيس » . والوطيس هو النور ومجتمع النار والوقود ، فهما كانت صفة الحرب ، فإن هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها ، وكأنما هي نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلا ، وكأنما تمثل لك دماء فارية ، أو ناراً دموية .  
وقوله في حديث الفتنة « هدنة على هدن » .

(١) أي على فراشه . قال في القاموس : وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه . وقال في النهاية : كانوا يتخيّلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته . قلنا : وكل ذلك تحتمله العبارة ، غير أن لها رأياً آخر ، وهو أن موت الرجل على فراشه من غير حرب ، ولا قتال ولا أمر يؤرخ به الموت في الأمانة ، مما كانوا يأنفون له ، والحنث هو الهلاك فكان صاحب هذه الميتة ، إنما ماتت أنفته وكبر باؤه ، فلم يرفع الموت أنفه في القوم ، بل أذله وأرغبه فكان به هلاكه ، لأن حياته كانت في عزته ، وعزته كانت في أنفه ، وأنفه هو الذي كبه الموت . وإنما مجاز العبارة كما يقال في الكبر ورم أنفه ، وفي العزة حمى أنفه . وفي الدفاع عن الأسم غضب لمطلب أنفه ، وكما يقال غضبه على طرف الأنف ، إذا كان سريع الغضب ، وجعل أنفه في قفاه إذا ضل ، ونحو ذلك مما يكثر في كلامهم الذي يؤيد ما ذهبنا إليه سيأتي العبارة نفسها ، فقد وردت في قوله ﷺ « من مات حنث أنفه في سبيل الله فهو شهيد » أي فلا غشاضة عليه بما يكره . انظر لها من من اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٤٧ -

والهدنة الصلح والمواصلة ، والدخن تغير الطعام إذا أصابه الدخان  
في حال طبخه ففسد طعمه (١) .

وهذه العبارة لا يدل لها كلام في معناها ، فإن فيها لو تأمن التصوير  
البيان ، لو أذيت له اللفظة ما وفيت به ، وذلك أن الصالح إنما يكون  
موادعة وإيتا وانصرافا عن الحرب ، وكفا عن الأذى ، وهذه كلها من  
عواطف القلوب الرحيمة ، فإذا بنى الصالح على فساد ، وكان لعله من العلل  
غلب ذلك على القلوب فأفسدها ، حتى لا يسفوح غيره من أفعالها ، كما  
يقلب الدخن على الطعام ، فلا يجد آكله إلا رائحة هذا الدخان والطعام  
من بعد ذلك مشوب مفسد .

فهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوى عليه القلوب الواغرة (٢) .  
وتم لون آخر في صفة هذا المعنى ، وهو اللون المظلم الذي تنصبغ  
به لثية السوداء ، وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة الدخن .

ثم معنى ثالث ، وهو النكبة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها  
وكانت سر البيان في العبارة كلها ، وبها فضلت كل عبارة تكون في هذا المعنى .

وذلك أن الصالح لا يكون إلا أن تطفأ الحرب . فهذه حرب قد طمشت  
نارها بما سوف يكون فيها نارا أخرى ، كما يلقى الحطب الرطب على النار  
تغيب به قليلا ثم يستوقد فيستمر ، فإذا هي نار تلتظى ، وما كان فوقه  
الدخان ، فإن النار ، ولا جرم من تحته ، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى

(١) وهو مصدر دخنت النار من باب فرح ، إذا ألقى عليها حطب  
وطب وكثر دخانها لذلك . وله معان أخرى .

(٢) المتلثة غيظا وحقدًا .

(١٢) - دراسات بلاغية

كما ترى ، حتى ليس في الهدنة التي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يتصور في العقل إلا وجوده اللون الياقي يصوره في تلك اللفظة لفظة « الدخن » .

وقوله لا نجفة ، وكان يسهر بالنساء في هوادجهن ، وهو يحس بالابل وينشد الفريض والرجز ، فتتشبط وتجد وتليق في سيرها فتبرز الموادج ، ويضطرب النساء في اضطرابها شديدا ، فقال له عليه الصلاة والسلام « رو يدك وفقا بالقوارير » (١) .

وقوله في يوم بدر ، هذا يوم له بعده (٢) .  
إلى أمثال لذلك كثيرة ، لو أردنا أن نستقصى في جميعها وفي شرحها واستنباط وجوه البيان منها لطال بنا القول جدا .

وكل ذلك من الأوصاف التي ابتدئها أفصح العرب ﷺ في هذه اللفظة ابتداء ، ولم تسمع من أحد قبله ، ولا شاركة في مثلها أحد بعده ، وكل كلمة منها — كما رأيت — لا يمد لها شيء في معناها ، ولا يفي بها كلام في تصوير أجراء هذا المعنى ، وانتظام هذه الأجزاء ، ونفص أصباغها عليها (٣) .  
واحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين .

(١) الزجاجات : وكأنهن نور وصفاء ورقة ثم سلامة فلما تسلم إلا بعدة الصياغة .

(٢) يريد أنه أساس تاريخي لما سيبنى عليه ، فليضموا كل مهمم فيه .  
أو هو تلك الأيام الآتية ، فإذا أحرزوه أحرزوها معه ، وإن خسروه ذهبت بذمها به .

(٣) انظر — اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٥٨ - ٣٦٦ ،

## دليل الكتاب

٣	مقدمة	٢
٥	إعجاز القرآن	
٨	المقصود بإعجاز القرآن	
١٥	وجوه إعجاز القرآن	
١٥	نظم القرآن	
٢٠	الاخبار من المتنبات	
٣٠	وقاؤه بمجاهات البشر	
٣٥	الاهجاز الملقى	
٤١	شبهه القول بالصرقة	
٤٩	صور من تذوق المتقدمين لبلاغة القرآن الكريم	
٥١	الملاحظ - دايله على وجود المجاز في القرآن الكريم	
٥٢	بلاغة التنبيه في بعض آي الذكر الحكيم	
٥٥	ابن فتيبة - رده على الطاعنين بوجود المجاز في القرآن الكريم	
٥٨-٥٦	صور من الإيجاز والإطناب والكنابة في القرآن الكريم	
	الرماني - البلاغة ثلاث طبقات - القبة العليا خاصة بالإعجاز	
٥٩	القرآني	
٦١-٥٩	صور من الإيجاز بالحذف والقصر	
٦٢	صور من التشبيه	
٦٣	صور من الإستعارة	
٦٤	الفواصل القرآنية وبلاغتها	
٦٦	الخطابي المقصود بالإعجاز عنده	
٦٦	تلائم الكلمات لمعانيها	

٦٧	التكرار وبلاغته
٦٩	الإيجاز وبلاغته
٧٠	الاستعارة وبلاغتها
٧١	من إيجاز القرآن : تأثيره في النفوس
٧٣	التشريف الرضى — النظر في المفردات القرآنية
٧٥	الانقفا وبلاغته
٧٦	إقامة الظاهر مقام المضمحل والسر البلاغى في ذلك
٧٨	الإيجاز وبلاغته
٨٠	الاطناب وبلاغته
٨٥	الاستعارة وبلاغتها
٩٩	المجاز المرسل وبلاغته
١٠٣	المجاز العقلى
١٠٦	الكناية
١١٠	البديع — صور من المحسنات البديعية ، ووجهة البلاغة فيها
١١١	جمال نظم القرآن فى
١١٣	الزخنى — الفصل والوصل
١١٤	المجاز العقلى وبلاغته
١١٦	التشبيه والأمثال وبلاغتهما
١١٨	الاستعارة وبلاغتها
	تذوق بعض المعاصرين للبلاغة القرآنية
١٢٢	مصطفى الرافعى — نظم القرآن
١٣١	محمد عبد الله دراز — مر التسمية بالقرآن والكتاب
١٣٣	حرف من سيرة الرسول بإزاء القرآن
١٣٧	البيان والاجمال فى كتاب الله
١٤٩	تذوق بعض المتقدمين للبلاغة النبوية
١٥٠	الملاحظ

١٥١	فنون من الكلام
١٥٢	من كلام الرسول ﷺ
١٥٨	الشريف الرضي
١٥٨	للتنبه وبلاغته
١٠٣	الاستمارة وجمالها
١٦٧	المجاز المرسل وجماليته
١٦٨	المجاز العقلي وحسنه
١٦٩	الكناية وروعتها
	تذوق بعض المعاصرين لبلاغة النبوية
١٧٢	مصطفى الرافعي - البلاغة النبوية
١٧٤	نسق البلاغة النبوية

